A N W A R   H A M E D



أنور حامد

يافا تعدّ قهوة الصباح










صفحة كتب

يافا تعد قهوة الصباح

رواية

تأليف

أنور حامد

الأهداء

إلى لمى الناطور، التي ألهمني جنونها الجميل بهية بنت الناطور، فكانت لعبة الأسماء....ومجازات الأقدار.

أنور

حكاية الحكاية

الموضوع لا يؤرق محمود عباس، على ما يبدو، ولا يقض مضجع النمر، الذي دوخ فرقة المستعربين في الانتفاضة الأولى، ولم تستطع إلقاء القبض عليه. ثقة الأستاذ أديب لا يهزها شيء، وكذلك حماسة جارتنا أم محمد للحق المغتصب

أما أنا فلم أعد أحس أنني أقف على أرض صلبة، ليس فيما يتعلق بقناعتي الشخصية، بل بقدرتنا على ايصال الحقيقة للآخرين بقناعتنا وحدها.

وما يعنينا من الأخرين؟ يستنكر الكثير من أبناء الوطن الطيبين، بحماسة لم تساعدنا كثيراً حتى الآن.

فضلا عن ذلك فموقفنا متذبذب: حين يتمكن بعض الأوروبيين، بمجهودهم الخاص، من الوصول إلى حقيقة ما

يجري في بلادنا، يواجهون بحفاوة وترحاب من أولئك الذين يتبجحون بأن رأي الآخرين لا يهمهم.

أما حين يتعلق الأمر بأعمال تحرج أولئك الذين يتظاهرون في ليالي كانون القارسة البرد في ميدان الطرف الأغر تضامنا مع غزة، فتجد جماعتنا يحتدون ويتبرأون من الأجانب الذين لا يفهمون قضايانا ولا يحسون بمعاناتنا بالنسبة لي الآخرون ليسوا أداة دعائية أستلها حين تخدمني، وألقي بها في أقرب مصب للعنات حين تحرجني أخلاقيا.

الآخرون بالنسبة لي متطلب لتعزيز إحساسي بأننا جزء من هذا الكل البشري. لا نستطيع أن نقاوم صقيع هذا العالم بحرارة دمنا وحدها، جرعة من الدفء الإنساني القائم على الإحساس بالانتماء قادرة على تخفيف شعورنا

المؤلم بالعزلة.

من الصعب ان تقنع أولئك الذين اعتادوا على رؤية العالم، من خلال تلك المسلمات التي نشأوا عليها، أن هناك الكثير من البقع المظلمة في وضعنا تحتاج للإضاءة، وأن الكثيرين في هذا العالم الواسع ليسوا شريرين بالضرورة، بل هم بحاجة إلى كشافات قوية تبدد تلك البقع المظلمة.

أستعيد المرارة التي كانت تتحدث بها صديقتي البريطانية كيتي، أثناء انتظارنا في مطار القاهرة موعد إقلاع طائرتنا إلى لندن.

لا تفهم كيتي لماذا يتحول أي فلسطيني وديع إلى صقر جارح إذا اكتشف أن محدثته الاجنبية لا تعرف ما يكفي عن قضيته؟ لماذا يبدأ بالزعيق ويتحول إلى كتلة من العدوانية؟ وهل يدرك أنه بذلك يقتل كل رغبة عند الطرف

الآخر بالاستماع إليه؟

ولكن من أين نبدأ؟ كيف نحدد موقع الفصل الأول في روايتنا، ونحن نرغم في كثير من الأحيان على البدء في المنتصف؟ ويتدحرج الفصل الأول مع مرور الزمن، فيوما ما كانت بداية الحكاية بالنسبة للعالم خطف الطائرات، أما الآن فيصر على فتح الستارة على مشهد التفجيرات الانتحارية. ونحن نسمح له بجرنا إلى اللعبة، ونبدأ بالمرافعة الإيديولوجية في منتصف القضية، نحتد ونوزع الاتهامات ونشتم القريب والبعيد، أما الطرف الآخر فيفاجؤنا وسط الزعيق بأن يقول بهدوء كش ملك، وتنتهي جولة أخرى من السجال الذي استخدمنا فيه سلاحا وحيدا: عواطفنا البائسة، بتسجيل هزيمة أخرى.

ماذا لو حاولنا التعامل مع الأسئلة المشروعة لذوي النوايا

الطيبة حول مسلماتنا؟

هناك الرواية الأخرى، رواية الطرف الآخر، التي طالما تجاهلناها بإباء وشمم لم يساعدنا في الوصول إلى ضمير العالم، بل جعل الطريق سالكة أمام الطرف الآخر. فلسطين بلادنا يرددها أطفالنا، ربما دون وعي لكنها، بل باندفاع عاطفي هو آفة الكبير قبل الصغير، ينقله الآباء للأبناء. ثم ماذا؟ ما هي فلسطين ومن نحن؟ عدا تلك الخرائط الصماء التي تزين أعناق الصبايا، والتي يتفنن الحرفيون في سكها تارة من ذهب وأخرى من فضة، وحينا من معادن أقل غلاء، مكتفين بسحر الرمز وألوان العلم الأربعة. عدا ذلك لم نفلح في تقديم الكثير للتعبير عن هويتنا.

من نحن؟ من يستطيع أن يمدني بأي معلومة تساعدني

في رسم ملامح تلك المجموعة البشرية، التي قطنت تلك البقعة الصغيرة من الأرض المسماة فلسطين، قبل أن يجري ما جرى وتختلط الألوان بشكل لم تجد معه لا أغانينا الوطنية السطحية ولا محاولات الأشاوس في المؤسسات الثقافية لمنظمة التحرير؛ لإعادة إحياء التراث الفلسطيني، من خلال إقحام الكلاشنيكوف على كلمات الأغاني التراثية والبذلات العسكرية المرقطة على الزي الشعبي.

أذكر كيف كدت أتعرض للضرب مرة، حين وصلت إلى بودابست، حيث كنت أقيم، فرقة شعبية فلسطينية من بيروت، مدربها مصري تقدمي شديد الإيمان بالقضية، لكن لم تطأ قدمه فلسطين في حياته، ولا شهد دبكة في عرس، ولا سمع أهازيج حقيقية.

لم يكن أعضاء فريق الدبكة يرتدون زيا شعبيا (قنبازا وكوفية وعقالا) بل زي الثورة (البذلة العسكرية المرقطة إياها).

كان واضحا أن الدبيكة لم يروا في حياتهم دبكة.

أما كلمات الأهازيج والأغاني الشعبية فكانت مصطنعة وبعيدة تماما عن الشعبية

كلمات إحداها تقول ياللي بتتحرك بنية صافية، الك مننا تحية وافية

شعرت بالغثيان حين سمعتها، وما كان مني إلا أن رددت عليها بعفوية، وعلى الوزن والقافية والنغم نفسها، وبصوت عال سمعه الجالسون في آخر صف في القاعة طيزك بردانة والعالم دافية، وما حدا قال لك يعطيك العافية وكنت مقتنعا أن هذه الأبيات، على فجاجتها، هي أقرب إلى جو

التراث الفلسطيني من تلك الكلمات المتفذلكة المزيفة.

صدم الجميع، وتحلق البعض حولي، وبدأوا يدفعونني بمناكبهم، ولم ينقذني إلا اندفاع بعض الاصدقاء لحمايتي.

إذن حفيت قدماي بحثا عن أي مصدر متاح مهما كان، بحثا تاريخيا، ذكريات بعيدة، وثائق، أعمال أدبية.

وصلت إلي عبر السنين نتف وشراذم صغيرة من المعلومات من مصادر باهتة ومتفرقة، تشير إلى أن سكان حيفا ويافا والمدن الأخرى والقرى المحيطة بها كانوا يشكلون مجتمعا راسخا ذا ملامح واضحة، ونسيجا عضويا متجانسا. لكن أين هم الآن؟ جزء كبير منهم يقطن مخيمات الأردن وسوريا ولبنان، بملامح هجينة ومرارة قاتلة، وذكريات لم تفلح السنون ومحاولات ذوي القربى

المستميتة في محوها. هؤلاء سيكونون ملاذي. لست معنيا بمن تمكنوا من إيجاد موطئ قدم لهم في أوروبا وأمريكا الشمالية، فأولئك اكتسبوا ملامح أثرت على نقاء ذاكرتهم. إذاً، فليس لي إلا الوصول إلى العدد الأكبر من اللاجئين في الدول العربية، علني أقترب من ذلك العالم الذي أرغب في إعادته إلى الحياة في روايتي القادمة. نعم، مشروعي هو رواية، أي لا قوة موضوعية له، لكني، وبعد مشاهدة فيلم عازف الكمان على السطح اقتنعت بأن الفن المتميز قادر على بعث التاريخ الميت وإعطائه صوتا.

إذاً، همتكم معي أيها الشباب والصبايا. لنبدأ بإنشاء صفحة خاصة على فيسبوك، نتمكن من خلالها من الوصول إلى من يستطيع المساعدة. أريد الوصول لأشخاص عاشوا في فلسطين في ثلاثينيات وأربعينيات

القرن الماضي.

ملوك هذا الزمن

هذا زمن آخر بلا شك، زمن اختصر فيه الزمن، وتداعت الكثير من الجدران.

لكل زمن ملوكه، وملوك هذا الزمن هم شبان وفتيات بعمر الورود، قفزوا فوق الحواجز وخلقوا فضاءاتهم الخاصة.

هدموا القلاع ودكوا جدران قصور ملوك الزمن الغابر، ليشيدوا مكانها فضاءات رحبة مفتوحة، التنقل فيها سلس وسريع، وغيروا قوانين الفضاء أيضا، ففي كوكبهم النجوم لم تعد بعيدة المنال. بإمكان أي منهم أن يصبح نجما في زمن قياسي، وكلمة السر: Social Media.

فضاء رحب ويرحب بالجميع، للتواصل والتسلية، بل وإقامة المشاريع الناجحة.

الملوك الجدد ذوو خيال خصب، حدوده المدى، وقد قطع

بعضهم سنوات ضوئية في سنين قليلة: يكفي التأمل في السنوات الأخيرة من حياةMarc Zuckerberg ، مؤسس فيسبوك: فكرة بسيطة ومضت في رأسه كانت قادرة على بناء أكبر مملكة في العالم، من حيث حدودها وعدد رعاياها.

أنا أنتمي إلى جيل آخر وزمن آخر. حين كنت في سن هؤلاء كان إرسال رسالة إلى أهلي من دولة أوروبية وتلقي الإجابة عنها يتطلب شهرا كاملا. وكان سماع صوت والدتي عبر الهاتف لدقائق معدودة لا تشفي الغليل ولا تروي الظمأ يضطرني للانتظار في مكتب البريد ساعات طويلة، حتى يتمكن العاملون على البذالات، في أكثر من دولة، من إقامة الاتصال بشكل يدوي، بيني وبين عائلتي في الطرف الآخر من العالم، فيستمع إلى كلماتنا العسس

على امتداد الخطوط، فضلا عن الجماهير الغفيرة التي تحتشد في مكتب البريد بانتظار مكالماتها هي الأخرى، وتقاوم ملل الانتظار بالاستماع إلى مقتطفات من حياة الآخرين، الذين يضطرون للصراخ حتى يصل صوتهم إلى أذن شخص عزيز يشد السماعة إلى أذنه بلهفة، على بعد آلاف الأميال.

مع ذلك أحاول جاهدا أن أبقى على اتصال حثيث مع الواقع الجديد، فأنا روائي ولا بد أن أكون قريبا من عوالم شخصيات رواياتي. نعم، لدي حساب على فيسبوك أستخدمه للتواصل مع أصدقائي وقرائي، لأغراض شخصية ومهنية، منها الوصول إلى نماذج لشخصيات روايتي المقبلة. وها أنا أضع قدمي على بداية الطريق، فقد تلقيت الكثير من الرسائل، بعضها يبدو واعدا. إحدى

الرسائل وردتني من شاب يقول إنني تأخرت قليلا، فقد توفي جده قبل بضعة شهور، ولكنه وجد بين أوراقه الخاصة شيئًا قد يكون مفيدا لي في مشروعي.

بهاء يقيم في حي الشميساني في عمان، ويسألني إن كنت معنيا بلقاء شخصي، فهو يريد أن يريني كنزه وليس مستعدا لإرساله بالبريد.، خوفا من ضياعه. أتفهم حرصه. عثر بهاء على ما يبدو على يوميات كان جده يكتبها في السنوات الأخيرة من إقامته في يافا، قبل اندلاع الحرب ورحيل العائلة إلى الضفة الغربية، ومن ثم إلى الأردن.

سأتصل ببهاء وأرتب معه موعدا في عمان خلال إجازتي الصيفية في الشهر القادم.

لقاء

وصلت إلى عمان للقاء بهاء، عسى أن توصلني يوميات جده إلى خيوط أستطيع أن أنسج منها حكاية.لم أنم جيدا ليلة البارحة، بالرغم من السرير المريح في الفندق الذي أقيم فيه في حي الشميساني تحديدا.كنت أحس بنوع مختلف من الإثارة عما كان ينتابني في الشهور الماضية، التي قضيتها في التخطيط لمشروعي ومحاولة اقتفاء أثر شخصياتي المفترضة.

الساعة تقترب من التاسعة صباحا، وأنا أجلس في صالة الاستقبال في فندق مريديان، أرتشف فنجان القهوة الثالث خلال أقل من ساعتين.

لم يبق على موعدي مع بهاء سوى نصف ساعة، وأنا لا أحس بملل على أي حال.

أتأمل الحياة تدب في صالة الاستقبال من حولي: نزلاء يصلون يتقدمهم عاملو الفندق يجرون حقائب ملابسهم، وآخرون يدفعون حسابهم استعدادا للمغادرة. نزلاء آخرون يعمرون مع ضيوفهم الموائد المحيطة بي، يحتسون قهوتهم ويتجاذبون أطراف الحديث، بعضهم ينفثون دخان سجائرهم دون أن يلفت هذا اهتمام أحد غيري على ما يبدو، فقد نسيت أن التدخين في الأماكن العامة مسموح به في الأردن، بخلاف أوروبا التي أقيم فيها منذ سنين طويلة، والتي حظرت التدخين في الأماكن العامة بشكل تدريجي.

النادل الشاب يحوم حولي بسترته الخمرية، وابتسامته المصطنعة. يا أبو الشباب لست مضطرا للابتسام، أنا أعرف أنك توشحت بهذه الابتسامة فور اجتيازك الباب

الدوار لهذا الفندق، الذي يؤمن لك العمل فيه ما يسد رمق إخوتك السبعة في جبل النظيف، وأنه لولا تدينك التقليدي لكنت كفرت قبل ساعات فقط حين طويت الحشية التي قضيت عليها ليلتك، ومعها أحلام لا يكفي لتحقيقها الراتب البائس الذي تتقاضاه هنا، حتى مع البقشيش السخي الذي ينفحك إياه بعض الزبائن الموسرين.

لا أريد قهوة أخرى، ضغط دمي على ما يرام، ولا داعي لاستعجال ارتفاعه. أشرب ثلاثة فناجين قهوة يوميا: واحدا مع وجبة الإفطار وآخر بعدها، أما الثالث فأتمزمز عليه، إما أن أتناوله مباشرة بعد الغداء أو أؤجله إلى ما بعد القيلولة إن أتيحت.

واليوم استنفدت الكوتا والساعة لم تبلغ التاسعة. فلا تراودني يا صديقي عن حرصي على صحتي.

- أستاذ منير ؟

وقفت لأحيي بهاء الذي وصل مبكرا عن موعده بضع دقائق. دعوته للجلوس ولوحت للنادل.

قال وابتسامة مهذبة على شفتيه: .

- معلش، المرة الجاية، اليوم خلينا نشرب قهوة عندنا في البيت.

لم أضغط عليه، وتوجهنا سويا إلى سيارته التي كانت تنتظر أمام الفندق.

- أهلا وسهلا.

- أهلا بيك بهاء إحكيلي شوي عن جدك.

أدار محرك السيارة وانطلق بها .

- البيت مش بعيد، بنحكي على راحتنا لما نوصل.

ابتسمت وهززت رأسي موافقا .

- شو بتشتغل بهاء ؟

- أنا صحفي.

قال، ثم تابع مبتسما: مثلك.

- مع أي مؤسسة ؟

- Free lance أعد تقارير لأكثر من فضائية، وبتعاون مع بعض الصحف اليومية.

- وصلنا البيت. تفضل.

نزلنا من السيارة وتوجهنا إلى فيلا حديثة، في منطقة لا تبعد عن الفندق أكثر من كيلومتر واحد، اجتزنا حديقة منسقة بشكل أنيق، العشب أخضر يانع بفضل العناية والري الكافي، والأزهار مشذبة. لا بد أن بستانيا متخصصا يعتني به. فاجأني وجود أشجار سرو في الحديقة.

- هذا مش مألوف في عمان.

قلت لبهاء.

- صحيح، أشجار السرو هاي كانت حصة جدي، كانت بتذكره بحديقة بيتهم في يافا. أنت بتعرف أنو حدائق يافا مشهورة بأشجار السرو.

ضغط بهاء الجرس ففتحت الباب خادمة فلبينية، تقدمني إلى غرفة استقبال واسعة. الثراء يشع من كل بقعة في هذا المنزل: جدران الحجر الإيطالي، الأثاث الفاخر في صالة الاستقبال، واللوحات الزيتية المعلقة على الجدران.

- ماريا إعملي قهوة.

- حاضر بابا.

ضحكت لمخاطبة الخادمة بهاء ببابا وهو ربما أصغر منها سنا، لكنه شرح لي أن كل رجال العائلة هم بابا بالنسبة

لها.

- جبت معي عبوة من مية البحر من برايتون زي ما طلبت، لكن ما شرحت لي السبب.

ابتسم بهاء وقال: لأني محضر لك مفاجأة.

مفاجأة أخرى؟ لا بأس، أنا بحاجة للمزيد منها، فقد قضيت شهورا في بحث شبه عقيم عن مصادر أيا كان نوعها، هات مفاجآتك إذن يا بهاء، وارفع معنوياتي.

- أنا قرأت مذكرات جدي، بتتضمن قصة حب مثيرة.

- يا سلام، أنت كنز يا بهاء.

ابتسم مرة أخرى.

- والمفاجأة الأخرى: وصلت لصاحبته.

لا، هذا كثير.

- أنت بتمزح أكيد !

- ابدا، ما كان سهل، وظفت كل مهارات الصحافة الاستقصائية اللي تدربت عليها في الجامعة، ووصلت لعجوز اسمها بهية.

- هون في الأردن؟

- نعم، بتسكن مع عائلة ابنها في الشونة الشمالية، ورح نزورها بكرا، عملت ترتيب مع عائلتها، إذا بتحب.

قلت بحماسة: طبعا بحب، حتى لو اضطررت أروح الها مشي.

ضحك بهاء: ما فيه داعي، سيارتي تحت تصرفك، وأنا كمان.

تأملت بهاء، تلك المعجزة التي وضعتها في طريقي الصدف، أو ربما فيسبوك ؟

أنا مدين لمارك زوكربيرغ، ولك أيضا يا صديقي.

شربنا القهوة في غرفة الجلوس، قهوتي الرابعة ! ثم قادني بهاء إلى غرفة أخرى· حين فتح الباب أحسست أنني ادخل عالما آخر: الأثاث، الجدران، محتويات الغرفة بأكملها مختلفة تماما عن بقية المنزل· انتابني شعور وكأنني داخل متحف، فكل محتويات الغرفة تذكر بزمن آخر: هناك عدد كبير من الصور بالأبيض والأسود على الجدران، صور لخيول وبيارات برتقال وأشجار سرو، وتجمعات عائلية على شاطئ البحر· لفتت انتباهي صورة لمنزل كبير، الصورة ملتقطة من الخارج، ويبدو المنزل وكأنه مؤلف من أجزاء غير متجانسة، ربما بنيت في فترات زمنية مختلفة· أمامه حديقة كبيرة استطعت أن أتعرف فيها على بضع أشجار برتقال، وثلاث شجرات سرو عملاقة·

قطع الأثاث في الغرفة تعود إلى عقود عدة، هياكلها من

خشب الجوز وبطانتها من القطيفة، أما السرير فلا بد أن عمره يتجاوز الأعوام الستين.

- هاي غرفة جدي.

- كان ساكن معكم إذاً.

- زوجته توفيت من أكثر من عشر سنين، وأصر والدي على أنو يجيبه يسكن معنا. ما وافق بسهولة، هو بيحب الخصوصية وإله عالمه الخاص زي ما انتي شايف.

وعدناه إنه بإمكانه ينقل عالمه بالكامل لهون، ويحتفظ بخصوصيته، وزي ما أنت شايف خصصنا له أكبر غرفة في المنزل، إلها حمامها الخاص، وملحق فيها غرفة جلوس لاستقبال ضيوفه فيها.

نقلت عيني مرة أخرى بين محتويات الغرفة، وتوقفت عند خزانة ضخمة للكتب.

- شو كان بشتغل جدك؟

- طبيب، تخرج من الجامعة الأمريكية في بيروت بعد النكبة بسنة. ظل يمارس المهنة حتى قبل وفاته بسنوات. رح تلاقي كل هذا في يومياته.

وقف بهاء وتوجه إلى خزانة قديمة وأخرج منها ملفا بغلاف باهت اللون.

- تفضل. هذه هي يومياته. حوالي ميتين صفحة، لو قدرت تصورها في الفندق وترجع لي الأصل بكون ممنون. يمكن تحتاج تتصفحها قبل ما نزور بهية.

- طبعا، تأكد أنو فضولي ما رح يسمح لي بالنوم قبل ما أخلصها.

رسائل للزمن الآتي

لا أدري متى ستقع بيدك هذه الأوراق، أنت يا ابن الزمن الآخر، الذي سبقته أو تخلف عني أو شاء لنا العبث أن نمر ببعضنا في مدارين متوازيين، لينسج مأساتي على هواه

هل وقعت بيدك أخيرا؟ أنا سعيد بذلك.

ذهلت وأنا أقرا الكلمات، هذا الرجل كانه يخاطبني، كأنه كان يكتب هذه اليوميات وهو يدرك أنها ستقع في يدي، ليس في يدي أنا تحديدا، ولكن في يد شخص من زمن قادم يتلهف لقراءتها.. إنه يرسل لنا رسائل عبر السنين، غريب عن زمنه، يبحث عن التواصل مع زمن آخر. شيء مذهل.

ذهبت إلى صالة الاستقبال في الفندق وطلبت منهم أن

يصوروا لي الأوراق. نفحت الشاب دينارين وأوصيته أن يحاول تصويرها بأكبر قدر ممكن من الوضوح؛ لأن الأوراق قديمة والحبر باهت. قال لي إن في مركز الأعمال في الفندق ماكنة تصوير حديثة، وبإمكاني أن أطمئن إلى أن الخط سيكون بدرجة وضوحه على الورق الأصلي.

جلست إلى إحدى الطاولات وطلبت كأس مارتيني بانتظار تصوير الأوراق. الذهول لم يزاولني. يبدو وكأننا، أنا وفؤاد، يبحث أحدنا عن الآخر عبر فارق زمني يتجاوز العقود الستة. هو يرنو إلى المستقبل، يريد التواصل معه، وأنا أنقب في الماضي الذي يكاد يندثر، لإعادة إحيائه بروايتي.

جاء الشاب مبتسما، ووضع الأوراق على الطاولة، وقال بفخر إن الصور أوضح من الأصل. نظرت فيها ورأيت أن

ذلك صحيح، فنفحته دينارا آخر، ووقعت فاتورة المشروب، ثم صعدت إلى غرفتي أستعجل الوصول. أريد أن أدفن نفسي في هذه الأوراق حتى الصباح، يجب أن أقرأها حتى آخر كلمة، وسأعود إليها مرة ثانية، وثالثة إذا تطلب الأمر.

أين أخطأ القدر؟ ربما حين زار شعور نادر بالذنب والدي في إحدى الأمسيات، وقرر أن يستدعي والدتي إلى غرفة نومها الأخرى في الدار الجديدة التي لا تنام فيها إلا نادرا، وتحديدا حين يكون والدي قد تذكر، وسط لياليه الماجنة داخل البيت وخارجه، أن له زوجة، وأن لها جسدا بدورها، وربما كان لجسدها، هي أيضا، متطلبات، من الضروري التفكير بها بين فترة وأخرى..

لا اظن أنه يفكر بهذا المنطق، فهو لا بد يظن أن الرغبة

حكر على أجساد الرجال، لذلك فأنا أستبعد أنه حين ينام مع والدتي يفعل ذلك انطلاقا من شعوره بأن لها جسدا ورغبات، بل ربما فعل ذلك بدافع التغيير، بعد أن يكون شبع من أجساد خليلاته اليافاويات والبيروتيات، وأجساد الفلاحات اللواتي يجلبن له عنوة، كلما لمح إحداهن أثناء مروره من إحدى القرى المجاورة وراقه جسدها.

ربما احتاج أحيانا إلى تجربة مختلفة نوعا ما مع امرأة مختلفة، لا يمارس معها المجون بلا حدود كما مع خليلاته، ولا يلمس في جسدها استكانة مذعورة لا تشي بأي درجة من التفاعل كما هي حال الفلاحات. والدتي زوجته بالحلال كما يقولون، يمارس معها الجنس باسترخاء وإحساس بنوع من الامتنان من ناحيتها، خاصة حين تثمر تلك الليالي القليلة حملا يجلب البهجة للوالدة، التي

تحس عندها بتعويض عن اللذة المفقودة.

إذاً؛ لا بد أنني كنت إحدى تلك الثمرات لفعل أدخل البهجة إلى قلب الوالدة، وجلب شعورا بالرضى للوالد؛ لإحساسه بأنه أدى واجبا عائليا. أما الثمن فسوف أدفعه طوال حياتي

عن ماذا يتحدث يا ترى؟ أي ثمن هذا الذي دفعه طوال حياته؟ يبدو أنني لن أنام هذه الليلة، مع أن برنامج الغد حافل ولا يفتقر للإثارة.

غدا سنلتقي بهية لا بد أن أتابع قراءة المذكرات حتى أكون فكرة عن شخصيتها قبل لقائها.

صحيح إنها الآن عجوز تقترب من الثمانين، والمذكرات كتبت حين كانت دون العشرين، إلا أن فضولي لا حدود له، وسأقابل بهية وأنا مسلح بما يكفي من المعلومات عن سني

صباها.

بهية يا مجنونة

تناولت عبوة المياه التي احضرتها خصيصا من بحر برايتون وتوجهت إلى مطعم الفندق· موعدي مع بهاء في الثامنة والنصف، حيث سنتوجه إلى الشونة الشمالية لزيارة بهية· ·

تولد لدي حدس، من خلال قراءة المذكرات عن دور مياه البحر في لقائنا، ولكني سأسال بهاء حين أراه·

اكتفيت بفنجان دوبل اسبريسو وبعض الفطائر، ليست بي شهية للطعام هذا الصباح فأنا متعجل للقاء بهاء· نظرت في ساعتي، بقي على موعدنا ربع ساعة· غادرت صالة المطعم إلى البهو، وجلست قليلا، ثم لم أطق الجلوس فخرجت، وانتظرت بهاء أمام الفندق·

وصل مبكرا كعادته·

- صباح الخير، شايفك ما نسيت عبوة المي.

قال بهاء مبتسما.

- كيف أنساه والموضوع شاغلني من امبارح ؟ نسيت أسألك عن موضوع مية البحر. ليش طلبت مني أجيبها؟

تناول بهاء العبوة ووضعها في صندوق السيارة.

- بهية مغرمة بالبحر، وهو الشيء الوحيد اللي بيثيرها في هالسن. هي بتحكيش مع حدا، حتى أفراد عائلتها، لكن عشقها للبحر بكسر الحواجز معها.

زاد شوقي لمقابلة هذه المرأة، وتعجلت الوصول إلى منزلها. لا أدري ان كانت ستتحدث إلينا، وماذا يمكن أن تقول لنا أو نقول لها، لكني أريد أن أراها. أصبحت شخصيتها بالنسبة لي تماثل الأسطورة، وبدأت أرسم ملامحها في مخيلتي. هي عجوز فلسطينية كالعشرات اللواتي عرفتهن،

لكنها شخصية فريدة، كما لمست من قراءتي لليوميات. لم تكن تشبه أيا من فتيات جيلها. عاشت في يافا ولكن عائلتها أصلا من قرية باقا قرب طولكرم. أعادتها يوميات فؤاد إلى الحياة في مخيلتي، فهل أستطيع أن أعيدها إلى الحياة بدوري في روايتي؟

- قديش بعيدة الشونة الشمالية عن عمان يا بهاء؟

- بين ساعة إلى ساعتين بالسيارة، حسب ظروف الطريق. المسافة لا تتجاوز 70 كم.

وظروف الطريق لم تكن مثالية في التاسعة صباحا، بدا لي وكأن كل أهل عمان يستقلون سيارات تزحم شوارع المدينة، وتجعل خروجنا منها باتجاه الأغوار في غاية البطء. اللعنة !

- يمكن كان لازم نطلع في وقت متأخر.

أقول لبهاء:

- ما بظن الوضع بختلف بعد ساعة أو ساعتين.

فعلا، أنا أعرف أن ثقافة استخدام السيارات في عمان تختلف عنها في لندن. هنا، في عمان، كل من يملك سيارة يعتمد عليها في التنقل، حتى لقضاء أبسط المشاوير.

- على مهلك بهاء، أرجوك، الموضوع مهم بس ما بستحق إنا نتسبب بحادث سير عشانه.

ابتسم بهاء ولم يعلق.

بمرور الوقت اتضح أن المسألة لا علاقة لها بتهور بهاء في القيادة ومخالفته لقوانين السير، بل، كما أوضح لي، لا أحد يلتزم بتلك القوانين، وبالتالي فان التزامه بها دون الآخرين سيجعله عرضة للحوادث.

- هون قيادة السيارة تشبيح، على الطريق لازم توخذ حقك

بشطارتك مش بقوة قوانين السير.

- وشرطة السير؟

- طبعا إذا خالفنا إشارة المرور أو السرعة القصوى في بعض الأماكن بنتعرض لمخالفة، لكن ما عدا ذلك ما بحكمه قانون. انت وشطارتك.

أعجبني ذوق بهاء في الموسيقى، واضح أنه نشأ في بيئة مثقفة.

- ما كنت عارف إنه سيبيليوس معروف في العالم العربي.

أقول له ونحن نستمع إلى السيمفونية التي أطلق عليها المؤلف اسم فنلانديا تصدح عبر السماعات الموزعة في أنحاء السيارة.

- مش معروف كثير، ما بظن بتلاقي أي من أعماله في محلات بيع الاسطوانات في عمان، بتلاقي بيتهوفن

وموزارت في أحسن الأحوال.

- إنت كيف وصلت إله؟

ابتسم بهاء وهو لا بد يخمن أثر ما سيقوله:

- تعرفت عليه من خلال جدي. كان مغرماً بالموسيقى الكلاسيكية، وترك لي مجموعة ثرية من الاسطوانات كلفني إعادة تسجيلها بنوعية ديجيتال مبلغاً ضخماً.

طبعا هناك أكثر من إشارة في يوميات فؤاد للموسيقى الكلاسيكية، ولكني لا أذكر أنه أشار إلى سيبيليوس تحديدا. لا يكف عن الإغداق علي بالمفاجآت، الواحدة تلو الأخرى، وعند كل مفاجأة جديدة يتفاقم شعوري بالأسف؛ لانني لم أتعرف إليه وهو على قيد الحياة. كم مرة مررت بعمان، وكم مرة أقمت في هذا الفندق، على بعد مئات الأمتار من منزل عائلته في الشميساني! كنا نبحث عن

بعض طوال الوقت، أنا منذ سكنتني فكرة التنقيب في حياة الفلسطينيين قبل النكبة، وهو منذ كان شابا، يبحث عن فضاء آخر، زمن آخر لأفكاره ومشاعره التي سبقت عصرها، وجعلته غريبا في زمنه، راغبا في التواصل مع المستقبل.

- بتعرف إني مغرم بموسيقى هذا المؤلف، لدرجة أنني استعرت واحدة من مقطوعاته لإحدى رواياتي.

- صحيح؟ أي وحدة؟

سأل بهاء بشغف.

- عندي رواية عنوانها .

Valse Triste.

- كتبتها بالفرنسي؟

- لا، استعرت العنوان زي ما هو. انتبه بهاااااااء.

- اهدأ أستاذ منير، الموضوع إنك مش متعود على ظروف السواقة هون، ما فيه أي مشكلة، اطمئن.

حاولت أن أهدأ لكن أعصابي بقيت مشدودة طوال الرحلة، لدرجة أنني توقفت عن الحديث وبقيت أراقب الطريق بقلق.

- وصلنا تقريبا، الحمد لله على السلامة.

- بتعرف العنوان؟

- بعرفه، جيت هون قبل.

بعد أقل من خمس دقائق أوقف بهاء السيارة.

- تفضل.

مشينا في طريق ترابي لاحت في نهايته مزرعة يتوسطها منزل اسمنتي من طابقين.

حين اقتربنا سمعت جلبة، ورأيت حشدا من الصغار يتراكضون حول المنزل، يتضاحكون ويرددون ما يشبه

الأغنية· حين اقتربنا أكثر سمعنا الكلمات بوضوح بهية يا مجنونة، فش بحر في الشونة، يكررونها وهم يتضاحكون·

- ولا انتي واياه، روحوا من هون·

صرخ بهم بهاء·

- يلعن أبوكم، غوروا من هون·

وانحنى على الأرض يريد التقاط حجر·

- اتركهم، شو قصتهم ؟

- أولاد الكلب، بسببهم بتطلعش أم فؤاد من بيتها ، كل ما تطلع بيزفوها ·

- أم فؤاد ؟

أذهلني أن تكون بهية قد أطلقت اسم فؤاد على ابنها البكر·

- أسمها أم فؤاد، كانت جريئة أكثر مما بتتصور·

قرع بهاء الجرس فأطل شاب في حوالي العشرين قال لي بهاء إنه حفيدها. فتح لنا الباب الخارجي وقادنا عبر قطعة أرض هي خليط من المزرعة والبستان، تقتسم مساحتها المحدودة بضع أشجار فاكهة: ثلاث أشجار برتقال وشجرة ليمون، وشجرة تين، كذلك خصصت مساحة للخضار: بندورة، خيار، فلفل أخضر. عند مدخل المنزل تناثرت بعفوية بضع شجيرات الجوري وأحواض المنثور والزينة. أما في الناحية الخلفية من المنزل فكان هناك إسطبل، حسب ما خمنت من الرائحة المنبعثة من تلك الناحية.

- تفضلوا.

قادنا الشاب عبر باب المنزل إلى غرفة واسعة بدا أنها غرفة جلوس عربية، فرشت على امتداد جدرانها حشيات إسفنجية عليها وسائد بأغطية مطرزة.

كنت أحس بالارتباك قليلا وأنا أحمل عبوة بلاستيكية مليئة بمياه البحر أحضرتها من برايتون، واستطعت الحصول على إذن استثنائي من شركة الطيران لكي أحملها معي على متن الطائرة. لم أكن أعرف ماذا أعمل بها، هل أضعها على أرضية الغرفة بهدوء وأتناسى وجودها، كما أفعل عادة حين أزور أصدقاء وآخذ لهم زجاجة نبيذ ؟ أم أنتظر دخول بهية وأسلمها لها باليد في طقس خاص ؟

- أهلا وسهلا.

رحب بنا الشاب مرة أخرى.

- ستي في غرفتها، أظن حكى لك بهاء انها ما بتغادر الغرفة.

أصبت بخيبة أمل، كيف سأقابلها إذن؟ لا أظن أن هناك إمكانية للاعتداء على خصوصية امرأة عجوز ودخول

غرفتها، لكن سامر فاجأني:

- إذا حبيت بتقدر تدخل الها رح تفرح بهديتك.

وأشار إلى عبوة المياه مبتسما.

- إيمتى ممكن ندخل؟

- بعد ما نشرب الشاي .

- شايهم ما ذقتش مثله.

قال بهاء.

- بعملوه من مية المطر.

ابتسم سامر مرة أخرى، ونهض لاستعجال الشاي الذي كانت والدته تعده في المطبخ. بعد دقائق دخل حاملا صينية عليها إبريق شاي وأكواب زجاجية. لاحظت أن الصينية كانت تخلو من السكرية.

وضع سامر الصينية على الأرض أمامنا وبدأ يمارس

طقوسا اعتاد عليها على ما يبدو. بدأ بصب الشاي من الإبريق بينما الفوهة قريبة من الكوب، ثم ابتعد به تدريجيا بينما يستمر في سكب الشاي، حتى تمتلئ الكاسة. حملها في يده ورفعها متأملا.

- ما خرطش بعده.

يعيد السائل الذهبي إلى الإبريق.

- لازم يبقى الشاي فترة كافية بعد ما نلقمو عشان يتخمر، أو يخرط زي ما بنقول.

إيقاع الحياة هنا على ما يبدو لم يتأثر بجنون اللهاث وراء السلع الاستهلاكية، وإلا كيف يمكن الاهتمام بتفاصيل كهذه؟

- الوالد في المزرعة مع إخواني وبعتذر لأنه عنده قطاف اليوم.

- لا أبدا، إحنا اللي بنعتذر عن إشغالكم. بتشتغل مع الوالد في المزرعة ؟

- لا أنا طالب في كلية الزراعة.

- وليش ما عندك محاضرات اليوم؟

ابتسم، فقال بهاء: غاب مخصوص عشاننا.

اعتذرت مرة أخرى، بينما انشغل سامر بسكب الشاي في الأكواب.

بعد أول رشفة من كوبي أدركت سبب غياب السكرية عن الصينية، الشاي محلى سلفا، كذلك أدركت ما قاله بهاء، فهذا المذاق لم أعرف مثله في حياتي: الماء هو أهم عامل مؤثر في طعم الشاي، وماء المطر يضفي عليه مذاقا لا يضاهيه شيء.. بعد أن أخذت آخر رشفة من كوبي شكرت سامر من كل قلبي، لا أظنني سأشرب شايا في

لندن بعد الآن.

- تفضلوا.

قال سامر، وتقدمنا عبر الدرج إلى الدور العلوي، حيث غرفة جدته كما أتوقع. لمحت سيدة في المطبخ خمنت أنها والدة سامر.

- صباح الخير.

- مية صباح.

تبعنا سامر برهبة، وأنا أتشبث بعبوة المياه. قادنا في البداية إلى حجرة جلوس بطابع مختلف عن التي تركناها للتو، حلت فيها الكتب محل الحشيات، وكان في أحد أركانها طاولة سفرة وبضعة كراسي.

- استريحوا، بدي آخذ لكم طريق.

جلسنا بانتظار كلمة السر التي ما لبثت أن جاءت. وقفت

والارتباك يسيطر على كياني، واتجهت إلى مصدر الصوت، دلفت من الباب لأجد نفسي في غرفة لا تشبه أي غرفة رأيتها في حياتي: ستائر النوافذ عبارة عن شباك صيد حقيقية، ألوان الجدران زرقاء وعليها رسوم قوارب صيد وسفن بيضاء.

يخترق الغرفة خيط يذكر بحبل الغسيل، ولكن تتدلى منه أكياس بلاستيكية شفافة مملوءة بسوائل بعضها شفاف قيل لي لاحقا إنه ماء من بحار مختلفة، (فهمت الآن سر العبوة التي حملتها من برايتون) وبعضها أزرق بلون مياه البحر، خمنت أنه سائل ملون استخدم لغرض انطباعي محض.

على امتداد الجدران امتدت رفوف خشبية اكتظت بزجاجات مياه بلاستيكية، خمنت أنها أيضا مليئة بمياه

البحــر.

انتابني شعور بالرهبة وأنا أتنقل ببصري بين التفاصيل السحرية لهذا العالم الخاص، وفي خضم ذلك نسيت أن أسلم على أم فؤاد.

انتبهت فجأة إلى عجوز تجلس على سرير في إحدى زوايا الغرفة، غمرني الارتباك، فحاول سامر إنقاذي.

- الأستاذ من بلاد الإنجليز، جايب لك مية بحر.

نظرت إليها فلمحت شعاع فرح طفولي يطل من عينيها، ويضفي عليها حيوية جديدة:

- هات يا بنيي، هات، ريتك سالم.

توجهت إليها ومددت يدي بالعبوة.

- صبحك بالخير.

- مية صباح.

تناولت العبوة مني وفتحتها وبدأت تشم ما بداخلها، وأنا أراقب تعابير وجهها التي اكتست بملامح غريبة، كأنها عادت صبية في العشرين، كأنها تخففت فجأة من عبء السنوات التي تثقل كاهلها وعادت بريئة، منفتحة على الحياة، بطاقات لا متناهية.

صبت قليلا من الماء من العبوة في راحة كفها وتأملته وابتسامة على شفتيها، ثم مسحت به وجهها.

وقفت بعزم فاجأني، حاملة العبوة، وتوجهت إلى أحد الرفوف الخشبية التي اصطفت عليها الأواني البلاستيكية، ما بين زجاجات وغالونات وأكياس مربوطة فوهاتها، وضعت العبوة إلى جانبها وبقيت واقفة تتفقدها، تتحسس هذا، وتعدل وضع ذاك، وقد أدارت ظهرها لنا ونسيت وجودنا تماما. ثم فجأة، بدأت تغني، اي والله تغني، أغنية

لها علاقة بالبحر خمنت أن البحارة في يافا كانوا يغنونها، أدرت جهاز التسجيل الصغير الذي أحمله بسرعة، حتى لا تفوتني كلمة واحدة من أغنيتها· جاء صوتها وكأنه يصلنا من عالم آخر:

وان هبت الريح قلت لمركبي سيري

وانا اصبر صبر الخشب تحت المناشيري

ناديت يا طير بحق السما العالي

تلم شملي وتجمعني على الغالي

شط البحور مرقدي والموج بنى لي دار

والشنشولة صنعتي وايامي في السنار

يا نازلين عالبحر لا تعاندوا التيار

بلكي تمر الصبية وتنطفي لي النار

أيام لما البحر يكبر تلاقينا

نلعن زمان الشقا ونلوم أهالينا

ولما البحر يهدا وريحه تنادينا

ننسى زمان التعب ونرمي مراسينا.

همست لسامر وبهاء أدعوهم للخروج؛ لأن وجودنا سيفسد عليها اللحظة، يجب أن نتركها لعالمها الرائع هذا.

خرجنا والذهول يسيطر علي.

لم أرد أن أوجه لسامر أي أسئلة عن جدته، لقد رأيت ما يكفي وإكثر، لكني لم أستطع أن أحبس فضولي بخصوص جدران الغرفة.

- مين اللي رسم لوحة البحر الرائعة على الحيطان ؟

- أختي سمر، بتدرس في كلية الفنون الجميلة، بطلب من جدتي طبعا.

يافا

أجوبها شارعا شارعا، أحاول استنطاق مبانيها القديمة، كلية الفرير، سينما الحمرا، جامع النزهة، الكنيسة الروسية.

يرافقني صديق إسرائيلي من سكان تل أبيب، يصطحبني إلى إحدى الصيدليات، نقابل عجوزا من سكان المدينة عاصر الفترة التي أريد أن أبعثها من جديد، يتحدث لساعات وأنا أستمع وأدون، تتجسد البيارات والميناء، البيوت والمقاهي والنوادي الليلية.

نخرج من الصيدلية ونتوجه إلى وسط مدينة تل أبيب، حيث يقوم فندق الهيلتون.

- لماذا أتينا إلى هنا يا يائيل؟

- أنت تبحث عن تاريخ مدينة يافا، وهذا جزء من تاريخها.

- فندق الهيلتون؟

أتساءل باستغراب.

- نعم، انتظر قليلا.

أغلق يائيل سيارته الصغيرة وأمنها ثم التحق بي، فصعدنا باتجاه الفندق القائم على تلة تطل على البحر.

- هيا بنا، سأريك شيئا مهما.

كنت أظنه سيدخل الفندق، أو يلقي نظرة على الشاطئ تحته، لكنه اتجه يسارا وقفز فوق سياج.

- اتبعني.

- إلى أين؟

- حاول أن تقفز فوق السياج بحذر.

دخلت عبر ثغرة، وإذا بي أجد نفسي وسط مقبرة.

- ما هذا؟

قرأ يائيل الصدمة في ملامحي.

- مقبرة كما ترى.

- بجوار الفندق؟

- لا، المقبرة كانت هنا قبل الفندق بزمن طويل.

تجولت بين القبور المتداعية وحاولت قراءة أسماء قاطنيها. المرحوم نعيم محمد محمود البلعاوي هل هو يا ترى من قرية بلعا القريبة من بلدتي؟

معظم القبور مهدمة. فجأة ألمح شخصا ينسل من بين القبور، يفاجئني ظهوره، ملامحه عربية.

- مرحبا.

- أهلا.

- حضرتك من هون؟

- بتقصد من تل أبيب؟ لا طبعا، أنا من الضفة، بشتغل في

تل أبيب، بنام هون مع أصحابي ما بنقدر نستأجر شقة.

صدمت.

- بتنامو بين القبور؟

- نعم. الدنيا صيف، والجو في الليل لطيف. وأنت، من وين؟

- من الضفة.

- وشو بتعمل هون؟

- قصة طويلة.

- ومين صاحبك؟ يهودي؟

- نعم، إسمه يائيل.

مد يائيل يده وصافحه ماجد، وتبادل معه بعض العبارات بالعبرية.

غادرنا المقبرة وأنا لم أستوعب بعد فكرة إقامة فندق بخمس

نجوم فوق مقبرة، ولكن يائيل أمدني ببعض المعلومات التاريخية التي ألقت شيئًا من الضوء على الصورة الغامضة.

- كانت شركة هيلتون أولى الشركات الفندقية التي فكرت بالاستثمار في إسرائيل بعد تأسيسها، وكانت الحكومة مستعدة لأي شيء من أجل إرضائها. قالت للشركة: اختاروا أي مكان تريدون في تل أبيب. وقع اختيارهم على تلة تطل على البحر، لكن المشكلة أن مقبرة لأهالي يافا كانت تحتل التلة منذ فترة طويلة. حاولت الحكومة ثني الهيلتون عن الفكرة وعرضوا عليهم أماكن أخرى جذابة، دون جدوى، ثم لجأوا إلى أحد عملائهم، واسمه شريف الشنطي.

(كان وقع كلمة عميل من فم يهودي غريبا، حتى ولو كان

صديقي التقدمي يائيل).

- شريف الشنطي كان عميلا معروفا للسلطات الإسرائيلية، وقد ساعدهم سابقا في شراء أراض عربية عن طريق الاحتيال، ولم يقصر هذه المرة أيضا. اشترى جزءا من المقبرة بالاحتيال وسلمها للسلطات، وتلك بدورها وضعتها تحت تصرف هيلتون. بالمناسبة شريف الشنطي قتل عام 1961 على ما أظن، وحتى الآن لم يتمكنوا من الكشف عن هوية قاتله.

مرة أخرى كان الاستماع إلى التاريخ الفلسطيني لمدينة تل أبيب من فم يهودي غريبا بعض الشيء، حتى ولو جاء من طرف صديقي اليساري يائيل. كنت فخورا به في تلك اللحظة.

- حين ينظر السياح الأجانب من غرفهم الباهظة التكلفة

سيرون مقبرة فلسطينية.

- لا عليك، هم لا ينظرون جهة المقبرة، فأمامهم شاطئ جميل.

ودعنا ماجد وعدنا إلى شقة يائيل، والصور تتصارع في مخيلتي: عائلة بهية والبيارة التي يقوم في نهايتها منزل العائلة، عائلة فؤاد وبيتها الضخم الذي يشبه القصر، والذي فشلت كل محاولاتي ويائيل للعثور على مكانه، فؤاد وعالمه الخاص جدا، وكأنه بأفكاره وشخصيته مندس من المستقبل على الماضي، بهية وقصتها المثيرة مع البحر..كل هذه الخيالات كانت تتفاعل في رأسي في الطريق من المقبرة إلى شقة يائيل، وبدأت تطغى على وعيي.

- أريد أن أعود إلى المقبرة في المساء.

سأل يائيل مستغربا: لماذا ؟

- أريد أن ألتقي أصدقاء ماجد الذين يقضون الليل هناك، كذلك أريد أن أعيش أجواءها وتناقضات الجوار.

- هل تريدني أن أرافقك؟

- لا داعي.

في أول الليل تركت يائيل لأشغاله وعدت إلى المقبرة بجوار الهيلتون. لم يكن التسلل إلى باحتها سهلا في الظلام. سمعت أصواتا لأشخاص يتسامرون تأتي من المقبرة، ثم فجأة أخذ أحدهم يصدح بموال فلسطيني. صرخت أنادي ماجد، لم يسمعوني، كررت المحاولة ولكن دون جدوى، ثم قررت المغامرة. لم أتبين السياج في الظلام، ولم أستطع العثور على الثغرة التي تسللت منها بعد الظهر، كان الظلام دامسا، واجتياز السياج شبه مستحيل. ثم فجأة تذكرت هاتفي الآيفون، واستخدمته كمصباح يدوي بفضل

أحد التطبيقات.

وصلت إلى حيث كان ماجد واثنان من أصدقائه يجلسون في الظلام، فاجأهم ظهوري، ونظر الشخصان الآخران لي بريبة، أما ماجد فكان يدير لي ظهره.

- مساء الخير.

قلت محاولا تبديد ريبتهم.

انتبه ماجد، استدار بوجهه ناحيتي.

- أهلاااان، هو إنت؟ تفضل، تفضل؟ يا شباب، هذا صاحبنا من الضفة. نسيت اسمك.

- منير.

- نورت يا منير تفضل. أصحابي بشتغلو معي في ورش البنا. مهيب وأبو رزق.

لوح لي صديقاه مرحبين.

- آسف، قطعت عليكم السهرة.

- لا أبدا، تفضل شاركنا.

جلست وسطهم.

- مين صاحب الصوت الجميل اللي كان يغني مواويل؟

كمل موالك.

سكب لي ماجد شايا في كاسة بلاستيكية، وبدأت أرتشفه بلذة. تابع أبو رزق الموال بصوته الحزين. كانت السماء صافية في أواسط يوليو، والنجوم تبتسم لنا من عل. لم يكن هناك قمر، ولكن الجو كان أشبه بأجواء حكايات جارتنا أم العبد العكة، خاصة تلك المسكونة بالجنيات والعفاريت، فها نحن نجلس وسط مقبرة قرب منتصف الليل، وكأننا أشباح خرجت لتوها من أحد القبور.

- خذ لك شفطة.

مد ماجد لي يده بسيجارة.

- شكرا، ما بدخن.

- هذا مش دخان، خذ جربه.

نظرت إليه بريبة: حشيش؟

ضحك مهيب: هيك إشي. ما دمت شرفتنا شاركنا.

- لا شكرا.

لم أكن قد دخنت الحشيش من قبل، وما كنت أريد أن أجربه في ظرف كهذا، لكن ماجد ألح، والنجوم غمزت لي، وصوت أبو رزق ومواويله الحزينة سلبتني آخر خط دفاع، فتناولت السيجارة من ماجد وأخذت رشفة. نفثت الدخان ببطء وانا أنتظر شيئا عجيبا يحصل لي، كالانفجار بالضحك أو الغناء، أو رؤية خيالات غريبة، لكن ذلك لم يحدث، بل كل ما أحسسته كان قليلا من الاسترخاء.

أعدت السيجارة لماجد. خطر ببالي أن أسالهم لماذا اختاروا المقبرة مأوى؟ لم تكن بي رغبة بطرح الأسئلة، ومع كل رشفة جديدة أخذتها زاد إحساسي بالاسترخاء.

- كيف؟

سأل مهيب، وتابع: شايف قبور؟

- أبدا.

- عشان هيك بندخنها، أكم رشفة وبنلاقي حالنا نايمين في الفندق.

أما أنا فلم أحس أنني أقيم في الهيلتون، بل بدا لي وكأن أشخاصا آخرين انضموا إلينا، بصمت، لم يسلموا، لم يتبادلوا أحاديث مع أصحابي، لكنهم كانوا ينظرون إلي، أنا تحديدا، وابتسامات غريبة على شفاههم، ثم بدأوا يصدرون لي إشارات لم أفهم مغزاها في البداية، إلا أنها

ما لبثت أن اتضحت. كانوا يريدون مني أن أتبعهم، فجأة أحسست بجسدي خفيفا، وبوعيي يتحرر من كل مركبات الحذر لتحل محلها رغبة بالمغامرة غريبة تماما عن شخصيتي. نهضت بخفة وتبعتهم دون أن أسأل حتى عن وجهتنا. والغريب أن ماجد وصديقيه لم يتدخلوا، وتابعوا السمر كأن شيئًا لم يحدث.

بدأت أركز في ملامح أصدقائي الجدد، اكتشفت أنهم شاب وفتاتان، لفتت إحداهما انتباهي بشكل خاص.تأملت فيها أكثر: شعرها طويل ومفلفل، كالمنكوش، قصيرة، نحيفة، على شفتيها ابتسامة متواطئة. بدا لي أنهم أفراد عائلة واحدة. ولكن ما بالهم صامتون؟ وأين هم ذاهبون بي؟

خرجنا من المقبرة على ما يبدو، لكني لم أجد نفسي في

أي من الشوارع المجاورة التي تجولت فيها بعد الظهر مع يائيل بحثا عن موقف لسيارته. نسير بصمت غريب، خطواتنا تتسارع، نهرول، نركض بسرعة غريبة لم أعهدها بنفسي، وكلما ابتعدنا عن مكان انطلاقنا تبدد الظلام أكثر، وكأننا نقترب من منطقة زمنية مختلفة، بل..... من زمن مختلف.

بنت الناطور تناجي البحر

الشمس تتسلل بخفر من خلف شجرة التين، والديوك توقفت عن الصياح بعد أن اطمأنت إلى أن الظلام قد تبدد، وأبو إبراهيم انتهى من إفطاره المتقشف الذي يتناوله منفردا قبل أن يفيق بقية أفراد العائلة، وهو مكون من اللبن الرائب بزيت الزيتون.

عليه التوجه في ساعة مبكرة إلى بيارة البيك (أبو سليم)، فهو ناطورها. يضطلع بمهام متنوعة، منها حراسة البيارة، والإشراف على وصول عمال قطف الحمضيات في الموسم ومباشرتهم عملهم ثم انصرافهم، وكذلك وصول الشاحنات التي تكدس على ظهورها الصناديق لكي توصلها إلى الميناء، ميناء يافا، تمهيدا لشحنها إلى أوروبا.

هو لا يملك سلطة، بل عليه التأكد من أن كل شيء يسير

على ما يرام، وأن الذين يدخلون البيارة هم المخولون بذلك ولا أحد غيرهم.

من مهامه أيضا انتقاء أفضل الثمار لإرسالها في سلال من الخوص إلى منزل البيك، وكذلك إمداد عائلة البيك بما تحتاجه من خبز التنور البلدي في أيام الولائم، وهذا اليوم كان أحدها.

أيقظ زوجته وابنتيه بهية وهنية قبل أن يعتمر الكوفية ويسوي فوقها العقال ويغادر المنزل.

دبت الحياة في المنزل الصغير القائم على أطراف البيارة. خرجت هنية حاملة جرتها وتبعت والدها إلى نهاية البيارة من الناحية الأخرى، حيث يقوم البئر الارتوازي. ملأت الجرة وعادت بها إلى البيت.

تلكأت بهية قبل أن تتوجه إلى غرفة الخزين لتحضر عددا

من كرات جفت الزيتون؛ لتلقيمها للتنور إلى جانب الحطب الجاف. اليوم، الجمعة، يقيم البيك وليمة لأصدقائه، وعلى أم إبراهيم أن تخبز عشرين رغيفا وترسلها مع إبراهيم إلى أم سليم.

للمرة الثالثة تناديها والدتها وهي تتجاهلها. أعملت المشط في شعرها الطويل، أو بالأحرى نكشته قليلا، فهو أكرت ومتموج، أو مفلفل كما تقول أمها، ولا يستقيم حتى لو بقيت تمشطه لساعات، لكنها ليست معنية بذلك، فهي تحبه هكذا. والدتها هي التي تماحكها دائما وتقول لها إن عليها أن تملسه بزيت الشعر بعد أن تغسله، حتى يستقيم، إلا فلن تظفر بعريس، وهذا كان يثير حنقها، فترد على والدتها بغضب: بديش، انشالله العرسان يموتو.

فتلطم أم إبراهيم خدها وتصيح: فال الله ولا فالك يما، فال

الله ولا فالك !

تتذكر بهية ذلك وهي تتحسس شعرها بحب، ثم تغسل وجهها بالصابون.

- يما شدي همتك، لازم نبدا الخبيز، تأخرنا.

يصلها صوت والدتها من ناحية التنور المشيد خلف المطبخ.

العائلة تعودت على عنادها، فهي نمرودة كما تقول والدتها، و كسلانة كما يقول أخوها إبراهيم، الذي يضيق ذرعا بانشغالها بنفسها.

أخذت كرات الجفت وتوجهت إلى حيث التنور؛ لتجد والدتها مقرفصة أمامه وقد أشعلت الحطب، ورشت شيئًا من الدقيـــق على المصطبة، حيث ستقوم برق أقراص العجين قبـــل أن تزج بها بالفرن بواسطة قطعة خشب

عريضة مستطيلة.

بدأت الوالدة بتلقيم التنور بأقراص الجفت في الوقت الذي وصلت فيه هنية حاملة سلة فيها بيض، جمعتها الواحدة تلو الأخرى من مناطق متفرقة حول البيت، حيث اختارت الدجاجات أن تضعها هذا الصباح.

- هاتي يا حبيبتي.

- يا سلام ! اليوم الفطور قدح ؟

صاحت بهية بفرح طفولي.

ابتسمت هنية والوالدة.

- انبسطي، بلكي بنستفيد منك اشي اليوم.

هذه الملاحظة جاءت من هنية التي تضيق ذرعا، هي الأخرى، بكسل أختها لأنه يعني عملا إضافيا لها.

بدأت هنية ترق أقراص العجين، ثم ثنت حوافها حتى

تحجز البيض السائل وتبقيه على السطح.

رشت بهية قليلا من الملح على البيض قبل أن تزج الوالدة بالأقراص برفق داخل الفرن.

تأملت بهية ألسنة اللهب تزداد قوة وحرارة، وأقراص العجين تحمر تدريجيا والبيض ينضج فوقها، فبدأت شهيتها للطعام تزداد وتطغى على إحساسها بالنعاس والحنق، بسبب اضطرارها للاستيقاظ في تلك الساعة المبكرة.

بدأت الوالدة في جمع الأرغفة واحدا تلو الآخر ورصها على صينية أعدت خصيصا بجانب الفرن.

- يلا روحوا افطروا، صحوا إبراهيم.

- وانتي ؟

سألت هنية.

- اتركيني، بفطر بعدين، لازم أخلص الخبيز، الجماعة بستنو.

- خليهم يستنو.

صاحت بهية في حنق.

- مش رايحة تطير الدنيا لو استنوا ساعة تعالي افطري معنا.

وأصرت بهية على أن تترك الوالدة التنور وتدخل إلى المنزل لتكون وسطهم، وهم يتناولون وجبة إفطار قروية مكونة من قدوح البيض واللبن الرائب الغارق في زيت الزيتون والشاي.

صفت هنية الأطباق على صينية خاصة من القش مستديرة الشكل بلون القش الأصفر، مع بعض الزخرفات الملونة، تختص في إعداد هذه الصواني فلاحات من قرية

جريشة المجاورة.

انضم اليهم إبراهيم الذي ما زال يفرك عينيه.

- صح النوم. صحي سيدنا البيك

قالت بهية ساخرة.

- أسكتي ا نتي.

جلس إلى جوار والدته التي سكبت الشاي في كوبه

ووضعت أمامه القدح

- صحتين.

- هذا الدلال منك ومن ابوي رح يتلفه.

قالت بهية.

- ماهو زلمة البيت يا حبيبتي.

- سلامة زلمة البيت، اللي في الشغل من صيا ح الديك.

- معلش يا حبيبتي، كل واحد إله واجباته، أخوك عليه

واجبات في المدرسة.

- وانا علي واجبات في المدرسة، ولا أنا مش محسوبة؟

- ضروري هالمناقرات ؟ خللينا نفطر.

جاء الاعتراض من هنية.

- قولي لأختك.

رد إبراهيم.

لم تجب بهية، بل استمرت في مضغ الطعام بشهية، أما الوالدة فتوجهت إلى إبراهيم قائلة: بعد ما تفطر بدي أبعث معك هالخبزات لبيت أبو سليم.

- حاضر يما.

- وجيب النا نص كيلو قهوة وإنتي راجع.

انتهى الجميع من الإفطار، رفعت هنية الأطباق وأخذتها إلى المطبخ.

- ساعدي أختك .

وجهت الوالدة كلامها لبهية.

- ما فيه داعي يما، أنا بضب السفرة وبهية بتجلي.

احتجت بهية: يا سلام، أتركيها أنا بضبها وانتي بتجليها

أنا ما بجليها.

احتدت هنية: لا رح تجليها، من الصبح ما عملتي اشي،

شو يعني أنا خدامة وإنتي أميرة ؟

- ليش إنتي شو عملتي ؟

- أأنا جبت المي من البير وساعدت إمي في الخبيز وبدي

أضب السفرة. ولا يعني محملتينا جميلة لأنك بتروحي

المدرسة؟؟ اليوم الجمعة، ما فيه مدارس.

تدخلت الأم لفض الاشتباك.

- خلص، أنا بجلي لما أخلص الخبيز.

- لا، هي بدها تجلي، بكفي كسل.

زفرت بهية ثم وقفت واتجهت إلى المطبخ، وبدأت تغسل الأطباق.

حين انتهت تسللت من المنزل دون أن يلاحظ بقية أفراد العائلة خروجها، واتجهت إلى نهاية البيارة من الناحية الجنوبية، حتى لا يراها والدها المنهمك في العمل عند مدخل البيارة من الناحية الأخرى.

كانت تسير باتجاه مقرر مسبقا وكأن قوة خفية تشدها إليه، لون مياهه في منتصف الصيف يعكس زرقة سماء صافية لا تشوبها غيمة واحدة، والأمواج التي تفقد عزمها وتتكسر قبل بلوغها الشاطىء مصدرة صوتا هو أقرب إلى الوشوشة منه إلى الهدير، فتبادلها بهية الوشوشة بدورها، تبثها شكاواها وأسرارها، تتحدث إليها وهي مقتنعة أن

الأمواج تجيبها، تعلق على ما تقوله لها، بل وتبثها شكواها هي الأخرى، وتبادلها أسرارا بأسرار.

- ما لك يا صديقي ؟ لونك لا يعجبني اليوم، هو داكن أكثر مما يجب، هل أنت غاضب؟ من أغضبك؟ وموجك يترنح كأنه سكران، ما الحكاية؟ أنا غاضبة أيضا، وقرفانة من هذه الحياة كلها. كل يوم يذكرونني أن دراستي شيء لا قيمة له. أخي إبراهيم يدرس وأنا أدرس، وأنا متقدمة عليه بصف واحد، وواجباتي الدراسية أكثر من واجباته، لكن الجميع يعتبر دراسة إبراهيم سببا ليدللوه، ويتركونه ينام على مزاجه ويفيق على مزاجه، يوم الجمعة يبقى في السرير إلى ما بعد طلوع الشمس؛ لأنه يسهر مع أصحابه أو يذهب إلى السينما ليلة الجمعة. أنا ؟ سينما؟ تمزح بلا شك. أنا أصلا سمحوا لي بالدراسة خطأ، ربما ندموا.

الأمواج تجيبها، تعلق على ما تقوله لها، بل وتبثها شكواها هي الأخرى، وتبادلها أسرارا بأسرار.

- ما لك يا صديقي ؟ لونك لا يعجبني اليوم، هو داكن أكثر مما يجب، هل أنت غاضب؟ من أغضبك؟ وموجك يترنح كأنه سكران، ما الحكاية؟ أنا غاضبة أيضا، وقرفانة من هذه الحياة كلها. كل يوم يذكرونني أن دراستي شيء لا قيمة له. أخي إبراهيم يدرس وأنا أدرس، وأنا متقدمة عليه بصف واحد، وواجباتي الدراسية أكثر من واجباته، لكن الجميع يعتبر دراسة إبراهيم سببا ليدللوه، ويتركونه ينام على مزاجه ويفيق على مزاجه، يوم الجمعة يبقى في السرير إلى ما بعد طلوع الشمس؛ لأنه يسهر مع أصحابه أو يذهب إلى السينما ليلة الجمعة. أنا ؟ سينما؟ تمزح بلا شك. أنا أصلا سمحوا لي بالدراسة خطأ، ربما ندموا.

أختي هنية أخرجوها من المدرسة بعد أن أنهت المرحلة الابتدائية، وجعلوا منها خادمة في البيت، أنا أمي أقنعت والدي أن يسمح لي بإكمال دراستي لأني متفوقة، لكنهم يريدون أن يجعلوني خادمة رغم ذلك. لا دراسة شفعت لي ولا تفوق.

علي أن أخدم ليس في بيتنا فقط،

بل في بيت البيك، أبو سليم أيضا، صاحب البيارة. والدي ناطور البيارة وعمله لا ينتهي بعودته إلى البيت، لأن عائلته أيضا مطلوب منها الخدمة. اليوم مثلا مطلوب من والدتي أن تخبز لهم 20 رغيفا من أجل ولائم البيك. لماذا لا يشترون من المخبز؟ لا أستطيع أن أطرح أسئلة كهذه في البيت، لأن والدي سيذبحني لو فعلت. .

لكن أنت، من أغضبك؟

كانت بهية تتحدث بصوت مسموع وهي تتمشى على امتداد الشاطئ، بعد أن خلعت حذاءها. رفعت طرف ثوبها وحاولت التوغل في المياه، محاذرة أن تبتل، تنحني قليلا وتعبث بالمياه، ثم تنتصب وتتمشى قليلا، وهي لا تتوقف عن الهمس للبحر والاستماع إلى ما يقول. تنظر إلى الأفق، تراقب بعض السفن التي تتجه إلى الميناء أو تلك المقلعة منه، وهي تبتعد حاملة شحنات الحمضيات إلى ما وراء الأفق. ماذا يوجد وراء الأفق يا ترى ؟ مدن بحرية بعيدة؟ وهل يشبهنا سكانها يا ترى؟ لا أظن. سكان مدن الإنجليز لا يشبهوننا؛ فبشرتهم بيضاء مشربة بالحمرة، كل الجنود الإنجليز الذين نراهم هنا بيض البشرة ووجوههم تكسوها حمرة غريبة، هناك من يقولون إن ذلك بسبب الخمرة التي يشربونها. وهم دائما مقطبون لا أدري لماذا.

لا أذكر أنني رأيت جنديا إنجليزيا يبتسم. هل لأنهم يكرهوننا لا يبتسمون في وجوهنا؟ أم ما الذي يعكر مزاجهم؟ ماذا نقول نحن ؟ فقر وعمل شاق، وفوق ذلك هم يحتلون بلادنا. ما رأيك يا بحر؟ هل يا ترى بحر الإنجليز مثل بحرنا؟ بحرنا يضحك أحيانا، لأننا نضحك أيضا، رغم كل شيء. هم لا يضحكون ولا أتصور أن بحرهم يضحك. أظن أن بحرهم ليس أزرق، لا أعرف لونه بالضبط، لكنه ليس بلون بحر يافا.

فرح بربع جنيه

سلم إبراهيم الأرغفة لأم سليم التي نفحته ربع جنيه، وقالت له: خذ يا ابنيي، فرح خواتك.

أم سليم هذه طيبة، لا أدري لماذا أرى فيها ملامح من والدتي، طريقة حديثها، ابتسامتها المستكينة والتي ألمح فيها شيئًا من الحزن. بل ربما مصيرها لا يختلف عن مصير أمي، هي زوجة البيك، ولكنها تقضي أيامها في العمل المنزلي، تخدم البيك وضيوفه، وهي لطيفة معنا، بعكس ابنها سليم الذي لا يكلف نفسه حتى عناء رد السلام.

أمي تخدم عائلتها في كوخ، وأم سليم تفعل الشيء نفسه في قصر، ما الفرق؟

أعطتني ربع جنيه، سأشتري بخمسين فلسا نصف كيلو

قهوة من عند أبو سمرة، وأدخر الباقي لمصاريف مقبلة.

نفحات كهذه هي مصدري شبه الوحيد لمصروف الجيب.

لكن أم سليم قالت لي فرح خواتك هي لا بد تعرف ظروف حياتنا. ماذا أشتري لهنية وبهية؟ ربما علبة حلويات صغيرة من المحمص.

تسكع إبراهيم في شارع جمال باشا، وقف برهة أمام سينما الحمرا، رأى لوحات كبيرة تعلن عن حفل يحييه المطرب المصري محمد عبد الوهاب.

تحسر في داخله، فلا بد أن ثمن التذكرة يعادل ما ينفقه في سنة كاملة، ثم هو لا يملك بذلة لارتدائها في حفلة كهذه. هو لم يدخل سينما الحمرا مرة واحدة، فثمن التذكرة فيها ثلاثة قروش، ومصروفه بالكاد يسعفه لشراء تذكرة في سينما الرشيد بقرش واحد بين الفترة والأخرى.

راقب شبانا أكبر منه قليلا يرتدون ملابس افرنجية أنيقة يدخلون السينما، لا بد أنهم يريدون حجز تذاكر لحفلة عبدالوهاب.

تابع سيره في شارع جمال باشا، فتحت روائح الشاورما شهيته، مع أنه التهم القدح كاملا هذا الصباح. هل يشتري شطيرة شاورما من عند أبو الخل ؟ معروف عنه أنه يذبح الخراف التي يستخدم لحمها لعمل الشاورما بنفسه، لذلك تكون دائما طازجة. وزوجته هي التي تصنع المخللات التي يضعها في الشطائر.

- تفضل، أهلا وسهلا.

دعاه أبو الخل من الداخل، وسيخ الشاورما عليه لحم الضأن المحمر، لكنه مصمص شفتيه ومضى لحاله.

ستلزمه النقود لأشياء أهم.

وصل محمصة أبو سمرة، طلب نصف كيلو من البن. والدته تحمصه في المقلى الفخاري ثم تطحنه فتفوح رائحته في أنحاء المنزل. جميع أفراد العالة يشربون القهوة باستثناء والده. فكر في والده: لا يشرب القهوة، ولا يدخن ولا يرتاد المقاهي، حياته تخلو من أي من المسرات التي يمكن أن تخفف إحساسه بقسوة الحياة. ما هو مصدر قناعته يا ترى وهو يعيش هذه الحياة المتقشفة؟

احتار فيما يشترى لأختيه، نقل بصره بين مقاطف مليئة بالفستق الحلبي وأخرى بالنوكا والنقليات المتنوعة، والفواكه المجففة، تأتي من الشام وحلب. ثم أخيرا استقر على علبة حلويات حلبية، لوزينا، وهي حلوى مصنوعة من عجينة اللوز والسكر ومحشية بالفستق الحلبي. ستفرح أختاه بهديته، خاصة بهية التي تحب هذه الحلوى ولا

تحصل عليها إلا في مناسبات نادرة.

ضيوف البيك

- هالة، قومي يما ، الله يرضى عليكي، قومي، تأخرنا بالفطور. الخبز وصل والفطور بعده مش جاهز. ضيوف أبوكي رح يوصلوا في أي لحظة.

فتحت هالة عينيها وتلفتت حولها. سددت نظرة باتجاه النافذة، تمطت قليلا، ثم قالت متذمرة:

- يما الوقت بكير. الضيوف بوصلوش قبل التسعة وبفطروش قبل العشرة. سم اللي يهريهم انشالله !!

- لا يا حبيبتي، لو سمعك أبوك بذبحنا، الجدران إلها ذنين. علينا شغل كثير اليوم، الضيوف طلبوا كبة باللبن للغدا. يلا قومي يا حبيبتي، خلينا نحضر الفطور وندق اللحمة. يلا يا روحي، روحي اغسلي وجهك.

يتكرر هذا الطقس كل يوم جمعة، وهو اليوم الذي يحضر

فيه أصدقاء البيك للغداء ولعب الورق. أبو إلياس صاحب مكتب التصدير الذي يتولى إيصال ما تجود به بيارات البيك المترامية الأطراف من برتقال وليمون ومندلينا وبوملي إلى بيوت العائلات المرفهة في أوروبا. يحضر أيضا الخواجة إسحق مدير شركة النقل البحري، المغرم بالأكل العربي، ولا يتأخر الميجور جيفري، الضابط البريطاني الذي يتولى تموين الجلسة بالويسكي السكوتش الأصلية، التي تصله خصيصا مع التموين الشهري لقواته.

يقضي ثلاثتهم يوم الجمعة بأكمله بمعية البيك، يتناولون إفطارا مكونا من الحمص المكلل بقطع اللحم المقلي بزيت الزيتون (رأس العصفور) والصنوبر، ولا تغيب عن المائدة الجبنة البيضاء واللبنة الطازجة والشاي.

بعد وليمة الإفطار يدخنون النارجيلة معا، ويتبادلون

الأحاديث التي تهم أربعتهم، والمرتبطة أولا وأخيرا بمصالحهم المشتركة، بلغة إنجليزية فصيحة يتحدثها الجميع.

- ويليام ابن أختي مسرور من الشحنة الأخيرة، ويرى أنه سيتمكن قريبا من زيادة الطلبية. هو يتفاوض الآن مع شركة في باريس من أجل تصدير برتقال العصير تحديدا لهم.

قال جيفري.

ويليام ابن شقيقة جيفري خريج كلية الاقتصاد في جامعة لندن، يتولى ادخال صادرات الحمضيات اليافاوية إلى السوق البريطانية، وهو شاب طموح، تشي بذلك خطوته الأخيرة، الرامية إلى إعادة تصدير جزء من الشحنة التي تصله إلى باريس، حتى دون مرورها بلندن وتكبد عناء

التخليص وإعادة الشحن. الاتفاقية تمت مع شركة Sunny Land التي يملكها أبو إلياس لشحن الحصة الفرنسية مباشرة إلى مارسيليا، وبارك الخواجة إسحق الصفقة، فهي تعني بيزنس إضافيا لشركته التي تملك أسطول الشحن.

- لنترك العمل الآن، طمئنا يا بيك، هل أوصيت لنا على كمية من الكبة بدون حشوة آخذها للعائلة؟

- ولماذا بدون حشوة يا خواجة إسحق؟

سأل أبو إلياس.

- بنتي سارة لا تحب البصل، وكبة أم سليم تتبيلتها زيادة.

- طبعا طبعا.

قال الميجور: التتبيلة هي روح الكبة يا هبيبي (قالها بالعربية). بنتك سارة ليس عندها ذوق بالأكل.

هز الخواجة إسحق رأسه موافقا: صحيح والله يا ميجور، ليس عندها ذوق لا بالأكل ولا غيره. تصور، قبل يومين فاجأتها تدخل سينما الحمرا مع شاب فلاح من بيت دجن.

انتفض البيك: مع فلاح ؟ هذا شيء فظيع. وماذا فعلت؟

- -ماذا بيدي يا أبو سليم ؟ أعطيتها نصيحة، وهي لم تسمع.

- نصيحة؟ والله لو حصل هذا في عائلتي لهدمت البيت على رؤوسهم.

ضحك الميجور جيفري وقال: أنت دمك حامي زيادة عن اللزوم يا أبو سليم، ومع أن الحزم مطلوب، لكن أنت عنيف زيادة عن اللزوم.

فتل أبو سليم شاربه وقال: والله يا ميجور العنف مطلوب أحيانا، لكن الدبلوماسية أيضا مطلوبة.

أشار الميجور بسبابته محذرا: انتبه أبو سليم، الدبلوماسية أيضا لها حدود، لا تظن أننا لا نعرف بعلاقاتك المشبوهة. وأخذ نفسا من النارجيلة تبعه سعال متواصل. ضحك أبو سليم: انتبه يا ميجور، كادت تطلع روحك من هذا السعال. أنت جشع في كل شيء، حتى في التدخين، دائما تريد الكثير في أقصر وقت ممكن.

ضج الباقون بالضحك، بينما قال الميجور مبتسما: ومع ذلك أنا أحذرك لأنك صديقي. نحن نعرف أن مخربين يترددون على بيتك.

قاطعه أبو إلياس: يا جماعة نريد كأسا قبل الغداء.

صرخ البك: يا رضا، يا رضا .

دخل شاب أسود فارع الطول نحيف كان ينتظر في الغرفة الملحقة بالصالون الواسع، الذي يجلس فيه الضيوف.

- نعم يا بيك؟

- جيب الثلج والكاسات.

- أمرك يا بيك.

هرول رضا نازلا الدرج الذي يقود إلى الباحة، التي يقوم في طرفها البيت الجديد المكون من طابقين، والذي يستخدمه البيك لممارسة حياته الخاصة. لا يربط بقية أفراد العائلة بحياته تلك سوى تأمين متطلباتها من الطعام اللذيذ الذي تعده أم سليم بمساعدة بناتها، والثلج لزوم الويسكي، وإعداد النراجيل.

وفي طرف الباحة الآخر يقوم بيت العائلة القديم المكون بدوره من طابقين، يحتل مطبخ كبير جزءا من دوره الأرضي ومخزن للمؤونة حافل بجرار الزيت والمرطبانات الكبيرة التي توضع بها الجبنة البيضاء بعد سلقها

وإعدادها للخزين، بالإضافة إلى أكياس السكر والرز ومخزون البصل والبطاطا والبرغل والقمح.

في الصالة الكبيرة، التي يفصلها عن المطبخ ممر طويل في نهايته درج، تجلس أم سليم عصر كل يوم تشرب القهوة، وتتجاذب أطراف الحديث مع بناتها: هالة، وهي كبراهن، تجاوزت العشرين ببضع سنوات. أنهت دراستها الثانوية في مدرسة المنشية، ثم لزمت البيت بعد أن رفض والدها وأخوها سليم رفضا قاطعا فكرة سفرها إلى بيروت أو القاهرة للدراسة في إحدى جامعاتها، برغم تفوقها.

ومها التي يسميها والدها الشقرا ولا يناديها إلا بهذا الاسم، وكأنه نسي تماما الاسم الذي أعطاه لها يوم ولادتها.

كذلك تشاركهن طقوس القهوة والسمر أم رضا وابنتها

سعيدة.

في الدور الأرضي من المنزل هناك غرفة تتكوم فيها عائلة من أربعة أفراد: أبور رضا وأم رضا، وهما كهلان تجاوزا الخمسين أسودا البشرة، من أصول إفريقية، التحقا بخدمة والد البيك مع بكرهما رضا وشقيقته سعيدة.

عائلة أبو رضى هي جزء عضوي من العائلة، ولا يفرق بين وضعهم ووضع إناث العائلة تحديدا شيء يذكر، فالجميع مسخر لخدمة البيك وضيوفه وأبنائه الثلاثة: سليم، بكري العائلة الذي ينوب عن والده في إدارة شؤون الأملاك، وما يترتب على ذلك من مفاوضات تجارية ومعارك يخوضها مع الفلاحين أحيانا، ومؤامرات يستخدم لتنفيذها فزاع، رجل العائلة المخلص ومعاونوه الذين تناط بهم المهمات الخاصة.

سليم التحق بالعمل بعد إنهائه المرحلة المتوسطة من

التعليم، وهو ساعد والده الأيمن، ورث عنه حزمه وقسوته، له سطوة في المنزل تكاد تضاهي سطوة والده، الذي ورث عنه أيضا عادة فتل شاربه في لحظات التوتر، لذلك فإن ملاحظة أي من البنات لشقيقهن يقوم بتلك الحركة كفيل ببث الرعب في قلوبهن، حتى لو لم يجلجل صراخه الذي تهتز له جدران البيت.

الولد الثاني هو فؤاد، الذي التحق بالجامعة الأمريكية في بيروت لدراسة الطب قبل سنتين، بعد أن أنهى دراسته الثانوية بتفوق.

فؤاد هو النقيض التام لشقيقه سليم مظهرا وجوهرا، لا يشبهه، لا في قوة بنيته ولا في صوته الجهوري، مظهره رقيق، يحب الموسيقى الكلاسيكية والمطالعة، خاصة الأدب، تعرف حديثا إلى صالون أدبي في بيروت وأصبح يتردد

عليه، ما سمحت له مشاغله الدراسية. هو الأقرب لشقيقاته والأكثر حنوا عليهن. نحيف، ولا يستدل من مظهره على ميله لممارسة أنواع محددة من الرياضة، أهمها السباحة في بحر يافا في سني صباه، وعلى شواطئ بيروت منذ التحاقه بالجامعة هناك.

من أنواع الرياضة الأخرى التي يمارسها بانتظام، أثناء إجازته الشتوية والصيفية ركوب الخيل، وله حصان مفضل بين مجموعة العائلة المنتقاة، صديقه الأزلي هو جن، وهو واحد من ثلاثة خيول أصيلة معروفة النسب تقتنيها العائلة، لونه أسود كالليل، ويتمتع بطاقة هائلة. حين يمتطيه فؤاد يحس أنه يسابق به الريح والزمن وهواجسه الدائمة، يتحرر من كل شيء راكد في حياته: علاقته بعائلته، وبطء وتيرة الحياة، وخطى التغيير شبه الميؤوس منه.

في غياب فؤاد يقوم رضا بامتطائه بين الفترة والأخرى، حتى يبقى على نشاطه.

إسطبل الخيول، في نهاية البيارة، هو أيضا في عهدة الناطور (أبو إبراهيم)، وعائلته. من بين أفراد العائلة تختص بهية بالعناية بالخيول، وتولي جن رعاية خاصة، فهي تهتم بتنظيفه وتدليكه، بل تشاركه خواطرها، تتحدث إليه كما للبحر، تبثه أسرارها، تساؤلاتها، وتحس أنه يستمع إليها.

أما آخر العنقود فهو بسام الذي لا يناديه والده إلا أبو السوم، والذي يحظى بدلال الجميع، من أفراد العائلة إلى الخدم.

بسام في السنة النهائية من المرحلة الثانوية، يعول عليه والده آمالا خاصة، حيث ينوي إرساله للدراسة في أمريكا.

غرف الأولاد الثلاثة مع حمام يشتركون به تحتل الدور العلوي بالكامل، أما الأم فلها غرفتا نوم: غرفة بالدور الأول إلى جانب غرفة ابنتيها تقضي فيها معظم أوقاتها، حين يقتصر دورها العائلي على خدمة البيك وضيوفه وأبنائه الذكور، وغرفة أخرى في المبنى المجاور الذي تطلق عليه العائلة اسم البيت الجديد لتفريقه عن الدار القديمة، التي تقيم فيها العائلة والخدم.

في البيت الجديد يستقبل البيك سيدات من فترة لأخرى، يهوديات وعربيات، من يافا وبيروت والقاهرة، يأتين إليه أحيانا في زيارات عابرة تستمر سويعات قليلة، يتناولن كأسا مع البيك، ثم يأخذهن في جولة إلى البيارة، يقطفن البرتقال والجوافة الطازجة ويأكلنها بشهية.

وأحيانا يحضرن في زيارات تستمر أياما.

أم سليم تتجنب الاقتراب من الدار الجديدة أثناء وجودهن، وترسل الأطباق الشهية التي تعدها، والعصائر الطازجة والثلج لزوم الويسكي مع رضا، وكلما خلت إلى نفسها تبكي بحرقة، ولكنها تحرص على أن لا تراها أي واحدة من بناتها، اللواتي يحقدن على والدهن بسبب هذا السلوك الذي يجرح مشاعر الوالدة، ولكن حين يبدين امتعاضا تحرص الوالدة على إسكاتهن في الحال؛ لأن للجدران أذنين كما تقول دائما، فهي تخشى غضب أبو سليم الذي يجلجل صوته في أنحاء البيت الكبير إذا غضب، ولا يتورع عن ضرب أي منهن.

- الخواجة إسحق أوصى على كبة بدون حشوة.

قال رضى مذكرا أم سليم.

- الله يسحقه إن شالله.

ردت هالة متذمرة·

- يما يما، وبعدين فيكي !!

نهرتها أم سليم، التي أعدت أربع كؤوس، وطلبت من هالة أن تكسر قالب الثلج الذي أحضره رضى في الصباح من المصنع في يافا·

ليالي الأنس 1

اتصل أبو إلياس بالبيك ليبلغه أنه يريد أن يشتري تذاكر لحفلة محمد عبد الوهاب في نهاية الصيف، وسأله عن عدد التذاكر التي يحتاجها.

- انت عارف يا أبو الياس، تذكرتين إلي ولسليم.

قال أبو الياس ضاحكا: قلت يمكن هالمرة تفكر تجيب إم سليم أو واحدة من البنات.

- ها ها ها لا هذا صعب. آخذ إم سليم على سينما الحمرا ؟

وأطلق قهقهة أخرى لم يفهم أبو إلياس سببها.

قبل أن ينهي المكالمة قال أبو إلياس بشكل عابر: الجماعة جايين من بيروت زي ما بتعرف، نحجز لهم في بنسيون عروس البحر ؟

- لا ما فش داعي، بنزلوا عنا. كم يوم باقيين ؟

- رح يوصلوا قبل الحفلة بيومين ويسافروا بعدها بيومين. .

- خلاص بينزلو عندي. شو برنامجنا بعد الحفلة ؟

- حجزت في يلدزلار، انتو بتسبقوني هناك، بوصل العيلة عالبيت وباجي عليكم.

- العيلة؟ ليش هم جايين عالحفلة ؟

- مرتي وبنتي ما بيفوتوا حفلة لعبدالوهاب. إسحق كمان طلب تذاكر لمرتو وبنتو.

- ماشي، الجماعة ما تهمل همهم، زي ما قلت لك، رح ينزلوا عندي.

والجماعة هم ثلاث سيدات سيصلن من بيروت لحضور الحفلة. إحداهن (فوزية) صاحبة ملهى ليلي اسمه Les Etoiles، يتردد البيك عليه كلما زار بيروت مع أصدقائه.

أما مرافقتاها فهما راقصتان في الملهى، إحداهما لبنانية تدعى رجاء، والأخرى مصرية من أصل تركي تدعى إنجي يستضيفهن البيك في الدار الجديدة كلما حضرن إلى يافا، ويدعو بقية أصدقائه إلى ليالي أنس لا يغيب عنها الميجور جيفري، المغرم بالمعلمة تحديدا. يقول إن أجساد النساء العربيات فيها جمال إيروتيكي خاص يفتقده في النساء الأوروبيات.

- ذوقك شرقي يا ميجور.

يتندر الخواجة إسحق.

- صحيح، ليس في النساء فقط بل في الطعام أيضا، فأطباق أم سليم هي الوحيدة القادرة على إثارة شهيتي للطعام.

ولا تفتقر جاذبية الشرق عند الميجور على النساء والطعام،

فهو مأخوذ بالصحراء أيضا. أحيانا يأخذ الجيب العسكري ويتوغل فيه لوحده، حين يكون في مهمة شرقي النهر. يبتعد عن المعسكر وينصب خيمة في أي بقعة يختارها عشوائيا. يقضي الليل مستمتعا بالسكون الساحر، ومتأملا سماء مرصعة بالنجوم، لدرجة أنه صار مولعا بالفلك أيضا.

صادق أحد رجال القبائل واسمه قريطان، وهو الذي علمه الاهتداء بالنجوم في أسفاره الصحراوية، بدلا من البوصلة، وأصبح يجد متعة كبيرة في ذلك.

لا يستطيع جيفري أن يفهم كيف يستضيف أبو سليم نساء في بيت العائلة، وكيف تقوم زوجته وبناته على خدمة الصحبة الماجنة، وتأمين ما يلزمها من أطعمة شهية ومازات لم يذق مثلها في أفخم مطاعم يافا، ولا حتى

بيروت.

البيك لا يحب الحديث عن هذا الموضوع، وأما أصدقاؤه فقد كفوا عن إثارته واكتفوا بالاستمتاع بمزاياه، خاصة أبو إلياس، وهو شريك في كل نزوات البيك، مع أنه يبقي هذا الجانب من حياته سرا أمام عائلته، التي لن تتسامح معه لو علمت به. حين يسافر إلى بيروت أو القاهرة بصحبة البيك يتعلل بأعماله التجارية الكثيرة، وحين يسهر حتى الصباح في منزل البيك يتعلل أن ذلك أيضا من متطلبات العمل والترفيه عن شركاء تجاريين يصلون إلى يافا من دول مجاورة.

غمرت الإعلانات عن حفلة عبدالوهاب شارع جمال باشا، حيث سينما الحمرا، والشوارع المجاورة وسط المدينة، وبيعت جميع التذاكر قبل موعد الحفلة بأسبوعين.

سيتجمع بعض الشبان ممن لا يستطيعون دفع ثمن تذكرة أمام السينما، علهم يلمحون الفنان الكبير أثناء دخوله. أما النساء اليافاويات ممن لن يسعفهن الحظ بالحصول على تذكرة، وهن يشكلن الجزء الأكبر من جمهور الفنان في المدينة، فسيستمعن إلى الحفلة في اذاعة الشرق الأدنى مسجلة في الليلة التالية، في سهرة تعمرها الأطباق المنزلية الشهية، والكؤوس في بعض المنازل، وتعلو فيها الآهات الملتاعة مع صوت المطرب الشاب..

أما الأقلية المحظوظة ممن ينتمين إلى الطبقة التي تستطيع دفع ثمن التذكرة، فسيرافقن أزواجهن أو آباءهن إلى سينما الحمرا، ويستمتعن برؤية الفنان شخصي، وبعدها يتابعون السهرة في أحد المطاعم الكبرى التي تعج بها المدينة.

ليالي الأنس 2

كان أبو إلياس في انتظار ضيوفه في الميناء، واستخدم الميجور جيفري نفوذه، فأوصى قبل أن يغادر المدينة في مهمة شرقي النهر، أن تعامل النساء الثلاث معاملة كبار الزوار.

- أهلا وسهلا، يافا نورت.

ردت فوزية بضحكة ومرافقتاها بابتسامات فرحة: منورة باصحابها.

توجهوا إلى عربة كانت بالانتظار، وضع السائق الحقائب في الخلف، وفتح الأبواب فجلس الجميع، ومن ثم توجه إلى منزل البيك في المنشية.

- كيف كانت الرحلة ؟

-أنا متعودة عالسفر بالبحر، إنجي كمان، بس رجاء

داخت·

- ولو، ما هي يافا فشخة عن بيروت، زي ما بتقولوا بلبنان،

لحقتي تدوخي ؟

استغرب أبو سليم·

- أنا بكره البحر·

قالت رجاء·

- بس البحر بيحبك ويافا وأهل يافا بحبوكي·

قال أبو الياس مداعبا·

ضحكت النساء معا، وقالت فوزية:

- كلامك عسل يا بو إلياس، بس فيك عيب واحد·

- عيب؟

-ما بنشوفك كفاية، ما بتيجي بيروت الا من السنة· للسنة·

قالت فوزية، وصادقت إنجي على كلامها: ولما نيجي

بتسهر معانا في بيت أبو سليم، وبعدين بتتركنا.

ابتسم أبو الياس: البركة بالشباب بيقوموا بالواجب. عندكم أبو سليم وسليم وفزاع، هذا غير الخواجة جيفري .

ضجت النساء بالضحك.

- صحيح، بس انتي صحبتك عالناشف.

قالت رجاء.

- كيف يعني ؟

- يعني كاس وضحك وسهر،.

- وغنا ورقص وسمر.

قال أبو الياس محتجا.

غمزت فوزية: يعني انت بتكتفي بالمقبلات، المازا يعني، وبتترك الدسم لغيرك.

ضج الجميع بالضحك مرة أخرى.

- المرة هاي مش رح أكتفي بالمزة، وعد شرف.

- شرف، ها ها ها.

وصلوا منزل البيك، حمل رضا الحقائب وصعد بها إلى الدور الثاني في الدار الجديدة، أما البيك فتقدم ضيوفه إلى الصالة.

- أهلا وسهلا، شرفتونا.

- أهلا بيك أبو سليم.

دخل رضا بأكواب من عصير البرتقال بقطع الثلج.

- برتقال ايش يا زلمي ؟هات لنا كاس نبل ريقنا.

قال أبو الياس، فضحكت السيدات، أما أبو سليم فاكتفى بالابتسام وقال:

- حلمك أبو الياس خللي الجماعة يوخدو نفس. كل شي بوقته.

- هذا وقته يا بو سليم، هذا وقته.

- تكرم يا سيدي، هاي رضا وصل ومعه الخير.

- أحلى رضا، هات الخير يا رضا.

قالت رجاء بدلال.

وضع رضا صينية عليها أكواب وجردل فيه ثلج، وبدأ بإعداد كؤوس الويسكي للضيوف، ثم دخل الصالة المجاورة وأحضر صينية عليها أطباق فيها زيتون ولبنة وحمص وبابا غنوج وكبة نية.

- يا سلام، مازا ولا في Etoiles Les.

قالت إنجي.

- مازة أم سليم لا يعلى عليها.

قال أبو إلياس مصادقا ورفع كأسه: بصحة ضيوف الأنس.

فردت فوزية: بصحة ليالي الأنس.

ليالي الأنس 3

السيارات الفخمة تصل تباعا إلى سينما الحمرا، يترجل منها رجال ببذلات افرنجية ونساء بثياب سهرة أنيقة بدون أكمام، ويتوجهون نحو المدخل.

حجز أبو الياس مقصورة خاصة له ولعائلته، وللخواجة إسحق وعائلته، وأخرى لأبو سليم وسليم والسيدات الثلاث.

أطفئت الأنوار تدريجيا وأضيئت أنوار المسرح. بدأ أعضاء الفرقة يدخلون واحدا في إثر الآخر، وهم يحملون آلاتهم، ثم تبعهم الفنان فضجت القاعة بالتصفيق.

جلس على كرسي أمام الفرقة محتضنا عوده، وبدأ بدوزنته، ثم انتقل إلى عزف تقاسيم لدقائق، بينما كان يجرد صوته كعادته، وأخيرا انطلق يشدو بأغنية ساعة ما بشوفك جنبي. تصاعدت صيحات الاستحسان من الرجال

والآهات الملتاعة من النساء، تبعها بأغنية بلاش تبوسني في عينيا، فارتفعت وتيرة الآهات في القاعة، وهو يعزف ويغني برصانة، لم يجد على معجبيه حتى بابتسامة.

في نهاية الوصلة استزاد الجمهور فغنى أغنية إضافية، ثم استزاد مرة أخرى فلم يزد. استمر التصفيق الحاد والهتافات لدقائق، وحين لم يعد الفنان إلى خشبة المسرح بدأ الجمهور بمغادرة القاعة.

توجه أبو سليم وابنه سليم والضيوف إلى سيارة كانت بانتظارهم، وأوصلتهم إلى نادي يلدزلار الليلي.

حين وصلوا تأملت فوزية مدخل المحل واسمه المكتوب بأضواء نيون حمراء.

- غريب، هذا المحل اسمه مثل محلنا ببيروت.

- كيف ؟

سال أبو سليم·

- اسمه يلدزلار، يعني بالتركي النجوم، ومحلنا في بيروت اسمه Les Etoiles يعني الشي نفسه بالفرنساوي، النجوم·

علق سليم: - بس نجومكم في بيروت أرقى·

ضحكت فوزية: - كيف ؟

- يعني نجوم حقيقية، بتلمع·

قال أبو سليم: - مش مهم تلمع، المهم تخلع، يعني ترقص·

ضج الجميع بالضحك، وسألت إنجي: ونجوم يلدزلار بتخلع ؟

- هلا بتشوفي·

استقبلهم بواب يرتدي حلة سوداء ورحب بهم، دخلوا المحل، فسارع شاب يرتدي بدلة أنيقة باستقبالهم، وقادهم إلى

مائدة كبيرة تتسع لعشرة أشخاص.

جلس الجميع، وفي الحال وصل نادلان وأحضرا أطباق المازا من حمص وبابا غنوج وكبدة دجاج وكبة نية ولبنة، بالإضافة إلى الفجل والزيتون والجزر والخيار والسلطات.

ثم أحضر نادل آخر جردلا من الثلج وزجاجة ويسكي.

- غريب بيعرفوا طلباتك يا بيك بدون ما تطلب.

قالت رجاء.

- هذا اسمو توارد الخواطر.

علقت فوزية.

- ولا خواطر ولا طناجر، المسألة اني ضيف دائم هون، وهمي حافظيني عن غيب.

صب النادلان كؤوس الويسكي.

- بصحة بيروت.

قال أبو سليم:

- بصحة يافا.

ردت السيدات بصوت واحد:

- بصحة الانس.

قال سليم:

كانت على المسرح مغنية غربية تغني أغنية Bessame Mucho الإيطالية، ولكن لم يعرها البيك وندماؤه اهتماما، ثم فجأة ظهرت امرأة شابة في حلة رقص شرقي، وبدأت وصلتها؛ فتسمرت عيون البيك وابنه عليها.

أحست النساء على المائدة بشيء من الغيرة.

- شو عاجبتكم؟

سألت رجاء:

- يعني بتوصلش لمستواكم، بس كل الرقص خير وبركة.

قال البيك.

وصل أبو الياس بمفرده وانضم إلى المائدة.

- مساء الخير.

- أهلا أبو الياس.

ما كاد يجلس حتى صب له النادل كأسا من الويسكي.

تسمرت نظراته بدوره على الراقصة، فبدأت النساء بالتململ.

- جعنا.

قالت فوزية وهي لا تعني ما تقول، فالطاولة مليئة بألوان المازة، لكنها أرادت لفت انتباه الرجال إليها وإلى صديقتيها.

نادى ابو الياس النادل واستعجل الاكل. بعد دقائق كانت الأطباق تصل تباعا إلى الطاولة: لحوم وأسماك مشوية

بأنواعها، بطاطا مقلية، رز.

- شو رأيكم بالحفلة ؟

سأل أبو إلياس.

- رائعة.

قالت رجاء.

- يعني بتستاهل الرحلة من بيروت؟

- أكيد.

أجابت السيدات بصوت واحد.

- الستات في يافا جريئات.

علقت فوزية.

- كيف؟

سأل أبو سليم.

- حسيت كإنهم بدهم يهجموا عالمسرح ويوكلوه للزلمي.

والرجال، جوازهن ما اعترضوا.

- مين بقدر يعترض على حب شاب وسيم؟

قال أبو ألياس.

- شو هالحكي الفاضي؟

رد أبو سليم محتدا.

- والله لو عيالي عملو هيك كنت موتهم.

- يا حمش.

علقت فوزية ساخرة، وأضافت:

- عشان هيك ما جبتهم ؟

في هذه الأثناء لم يشارك سليم بالحديث، بقي نظره متسمرا على خشبة المسرح، حتى أثناء الأكل، فقد أعقبت الوصلة الراقصة وصلة ستربتيز لم يلحظها الباقون؛ لأنهم كانوا منهمكين بالأكل.

- صاحبكم الخواجة جاي الليلة؟

سألت فوزية.

- أي منهم؟

- الخواجة العسكري، الانجليزي.

- جيفري؟

- أيوا.

- لا اليوم مش موجود في البلد.

- خسارة.

قالت بخيبة أمل.

- ليش احنا مش قد المقام ؟

تساءل أبو سليم باحتجاج.

- قد المقام ونص.

ردت رجاء، وتابعت.

- بس فوزية ذوقها في الرجال غريب.

وتساءلت.

- شو بيعجبك فيه؟ وجهه زي طيز السعدان، ومنخاره.....

- بلاش تدخلي بالتفاصيل.

قاطعتها فوزية، بينما ضج الباقون بالضحك، حتى سليم الذي كان مشغولا بجسد راقصة الستربتيز عن الحوار.

بعد العشاء توجه الجميع إلى بيت أبو سليم ومعهم أبو إلياس الذي استأذن من زوجته بقضاء الليلة خارج البيت، للاحتفاء بضيوف عمل وصلوا لتوهم

في الدار الجديدة دارت الكؤوس، واستمر اللهو حتى الصباح، وعبر الباحة في الناحية الأخرى، كانت امرأة تنتحب وحيدة في غرفتها، وحين بدأت أشعة الشمس تتسلل من نافذتها، قامت وتوجهت إلى المطبخ وبدأت

بالاستعداد للوليمة التي أوصى عليها البيك لضيوفه. هذا اليوم سيكون غداء الضيوف محاشي بأنواعها: كوسا وورق عنب ويقطين، على طريقة أم سليم

عرس طارق

الاستعدادات على أشدها في بيت أبو أبراهيم، فالجميع مدعوون إلى قرية بيت دجن المجاورة لحضور زفاف ابن العم طارق.

أفاقت هنية وبهية في الفجر، وأعدتا العقيدة، وهي عجينة لزجة تحضر من السكر والليمون، وتستخدمها النساء لإزالة الشعر الزائد.

الفتيات غير المتزوجات، بشكل خاص، يمارسن ذلك بطقوس إيروتيكية تعوض جزئيا غياب التجربة الحقيقية، وبالرغم من أن العملية لا تخلو من ألم إلا أنه يختلج بشيء من اللذة الغامضة. الكثير من الفتيات يمارسنها كطقس جماعي، تتخلله النكت والتعليقات والتلميحات الجنسية، لكن بهية تصر على ممارسته وحيدة، في خلوة إلى

نفسها.

تترك المجال لشقيقتها أن تنتهي من العملية وتستحم، ثم تدخل هي الحمام وتخلو إلى جسدها، تتأمله، تنزع الشعر، وتداعبه، تحاول أن تستحضر إلى خيالها رجلا جديرا به، ترسم له ملامح غير مألوفة لدى الفتيات في سنها. دائما تتخيله إما بحارا أو فتى يهيم في البراري، لا يستقر في مكان معين، ولا يقف في طابور الفلاحين الملتصقين وعائلاتهم بالأرض التي يحنون عليها وتكافئ غيرهم، يفنون حياتهم في خدمتها ويجني خيراتها أسيادهم.

فارسها لا يعمل في بيارة أبو سليم ولا حتى في الميناء، فإن لم يكن بحارا يصارع الأمواج والعواصف ويصادق الريح، فهو يسكن البراري، ويعاشر الجداول وأشجار

السرو البري. إذا جاع فمائدته عامرة بالأرانب البرية وطيور الحجل، وعروق الخبيزة والزمطوط واللسينة، وإذا عطش فمياه الجداول تروي ظمأه، وإذا غازلته النجوم أخرج شبابته من جيب صديره وناجاها قليلا، ثم افترش الأرض تحت زيتونة وأخذ إغفاءة.

فارسها لا يشبه الشبان الذين سيرقصون الدبكة في عرس ابن عمها طارق، يدقون الأرض بكعابهم، بينما يسترقون النظر إلى فتيات احتشدن في ساحة القرية، يبادلنهم نظرة بنظرة، ولوعة بلوعة، ثم يعدن ويعودون في نهاية السهرة كل إلى منزله، يعاشر خيالات جامحة، ويكتوي بنار الحرمان، وحيدين في فراشهم، يقتاتون تلك النظرات التي تبادلوها في غفلة من أولي الأمر المشغولين بترتيبات العرس وتفاصيله.

- بهية.

قطع عليها خيالاتها صوت شقيقتها القادم من الحمام.

- تعالي افركي لي ظهري.

- حلي عني.

- ولك تعالي، كل مرة لازم أترجاكي ؟

دخلت الحمام الذي كان يعبق برائحة الصابون وبخار الماء، الذي يغلي في إناء خاص فوق موقد يعمل بالكيروسين (الكاز)، ويسميه الفلاحون البابور

كانت أختها تقف وسط الحمام وتدير ظهرها لها. تناولت الليفة وقطعة الصابون النابلسي وبدأت تدلك ظهر أختها، والأخرى تتألم وتصيح بين الفترة والأخرى: بالراحة، قشطتي جلدي.

- بلا دلع، يلا خلصنا، إلك ساعة حاجزة الحمام. روحي

البسي جوة وخليلي الحمام.

خرجت هنية بعد أن تلفعت بمنشفة كبيرة، وتركت أختها في الداخل. بعد أكثر من ساعة طرقت والدتها باب الحمام.

- يلا يما أخوكي وأبوكي بدهم يتحمموا، اتأخرنا.

انتهى الجميع من استعداداتهم ولبسوا أفضل ما لديهم، وتوجهوا نحو عربة حنطور كانت تنتظر في الخارج. تعاون الوالد وإبراهيم على حمل سلة كبيرة فيها خروف كامل ذبحوه على شرف المناسبة، وأخذوه إلى أبو داوود الجزار في سوق اللحم، سلخه وقطعه، وسيكون هدية العائلة لابن العم، إلى جانب النقوط النقدي الذي ستقدمه نساء العائلة للعروس، ورجالها للعريس.

أخذ الجميع أماكنهم في العربة وتوجه بهم السائق إلى

بيت دجن:

- عقبال عند إبراهيم:

- بحياتك يما:

رد ابراهيم ممتناً:

- وعند الصبايا:

قال الأب:

- بوجودك يابا، الله يخليلنا اياك:

ردت الفتاتان بصوت واحد:

- يا من درى بشوف ولادكم بحياتي:

قالت الوالدة وأتبعت ذلك بتنهيدة:

- انشالله يا رب، الله كريم:

ردت هنية:

- آمين:

ردد الوالد وأتبعها :

- جايين قويلة وزجالين من الشعراوية.

- صحيح ؟

سألت هنية بفرح طفولي.

- وعمكم عازم كل أهل بيت دجن وجريشة وسلمة. ابنه الوحيد وبده عرس بطنة ورنة.

سألت بهية: صحيح جايبين رقاصة من يافا ؟

- ما عنديش علم.

أجاب الوالد.

ضحكت الوالدة: والله بعملها.

رد إبراهيم: عمي أبو طارق إلو بالكيف.

علقت الوالدة: والله منعم عليه، قادر لو بده.

وصلوا إلى القرية، وتوقفت بهم عربة الحنطور أمام بيت

العريس، فاستقبلتهم أمه وأخواته بالأهازيج:

- أويها وصلوا حبابنا والدار مشتاقة.

أويها يسلم اللي أجا ويعيش من لاقى.

أويها يا ابو ابراهيم يا زينة أهل باقا.

لولولولولي.

(عائلة أبو إبراهيم وابو طارق يعود أصلها إلى بلدة باقا في منطقة طولكرم، وكذلك عائلة أبو سليم صاحب البيارة. كان أبو أبراهيم يعمل ناطورا لبيارة البيك في طولكرم، ثم أحضره معه إلى يافا، حين انتقل وعائلته للاقامة هنا بعد وفاة شقيقه الأصغر شكري، الذي كان يقيم في بيت العائلة القديم في يافا ويرعى أملاكها. أما أبو طارق فيعمل وكيلا لأملاك البيت في قرى يافا، ويقيم في بيت دجن، ويملك بيارة حمضيات صغيرة).

ردت أم إبراهيم:

أويها يا ابننا طارق تفرح وتتهنا.

أويها عقبال عند اللي باقي واللي بيستنا.

أويها يا ابو طارق ويدوم عزك النا.

لولولولولولي.

هب أبو طارق لاستقبالهم، كان يرتدي قنبازا مقصبا، وفوق القمباز عباءة صيفية من الحرير المقصب، ويعتمر كوفية بيضاء مثل البفت كما لاحظت زوجة أخيه.

أما طارق فكان يرتدي قنبازا هو الآخر، سيستبدله ببذلة إفرنجية سوداء بعد الحمام.

صافح أبو إبراهيم شقيقه وقبل وجنتيه، ثم صافح طارق مباركا، ولثم الشاب يد عمه.

صافحت البنات أيضا يد عمهن ولثمنها، وصافحن طارق

وتمنين له السعادة، كذلك فعل إبراهيم.

أما أم إبراهيم فقبلت وجنتي طارق وصافحت والده وباركت لهما، ثم توجهت مع بناتها إلى داخل المنزل برفقة أم طارق وشقيقاته.

اجتمع الجميع في مطبخ كبير بابه مفتوح على حديقة تحولت بدورها إلى مطبخ في الهواء الطلق، عمرت بالمواقد التي تغلي فوقها حلل كبيرة مليئة باللحم والمرق. نساء العائلة يعالجن المواقد تارة، ويحركن الطعام بملاعق خشبية تارة أخرى. انضمت أم إبراهيم إلى حشد الطباخات، وبدأت بتحريك معقود اللبن في وعاء ضخم، بينما توجهت أم طارق إلى حلة أخرى فيها رز أضافت اليه ما يسمى بالقفرة، وهو سمن أذيب بفعل الحرارة، يضاف إلى الرز بعد نضوجه لإعطائه نكهة خاصة.

حين نضج الطعام بدأت الفتيات بغرفه في صوان كبيرة تدعى سدر، غرفن الرز أولا ثم سكبن فوقه معقود اللبن، وتوجنه بأكوام من اللحم المحمر، وزينه بالصنوبر واللوز.

جاء إبراهيم وبعض الشبان ونقلوا الصواني وعليها الطعام إلى الديوان، ثم صرخ أبو طارق: تفضلو يا أجاويد.

وانطلقت الأهازيج والزغاريد من جديد.

اصطف رجال ونساء وأطفال حول المائدة، وبدأوا بتناول وجبة غداء العرس، وبين الفترة والأخرى يصدح صوت امرأة بأهزوجة تتلوها زغرودة.

بعد أن انتهوا قامت الفتيات برفع محتويات المائدة وتوجهن بها إلى المطبخ، حيث تعاون على غسلها.

ثم انطلق الرجال إلى الساحة خارج المنزل، حيث انعقدت

حلقة الدبكة، رافقها أبو الهيب، وهو أشهر قويل في الشعراوية دعاه أبو طارق من بلدته باقا لإحياء عرس ابنه· أخذ الشبان أماكنهم في حلقة الدبكة في الساحة، وتحلقت الصبايا على الشرفات بعيون ظمأى، يحدقن بأجساد ممشوقة تتمايل على ألحان الشبابة التي كان يعزفها أبو صبري، وأكعاب تدق الأرض بقوة فتثير فيهن رغبات سرية· أجواء العرس تستحضر فيهن خيالات حول ما سيحدث في غرفة الدخلة بعد ساعات، وتبدأ كل فتاة تتخيل نفسها مكان العروس، فتنتقي شابا يروقها من حلقة الدبكة، وتعيش معه تلك الليلة بكل طقوسها، في خيالها طبعا·

أما الشبان فيفجرون كل رغباتهم في حركات الدبكة العنيفة، وبين كل انحناءة جسد ودقة كعب يسترقون النظر

إلى الفتيات المتحلقات على الشرفة، يتخيلون أنهم لمحوا ابتسامات ونظرات شبقة، فتفور حماسهم أكثر، ويدقون الأرض بقوة أكبر، والعرق يتصبب من جباههم. وهم بدورهم يتخيلون العريس في ليلة الدخلة، ويستعجلون الزمن ليعيشوا التجربة ويمارسوا ما يبدعه خيالهم.

في الداخل كان الحلاق أبو كامل الذي أحضر خصيصا من يافا يقص شعر طارق، والنساء يهزجن:

يلا يا شلبي بالله عليك

جلخ موسك وخفف ايديك

لا توجع العريس أحسن أدعي عليك

واحلق يا حلاق بالموس الذهبية

واحلق يا حلاق

واتمهل يا حلاق تا تيجي الاهلية

اتمهل يا حلاق

زينو يا مزين تحت في التينة

يا ميمتو فرحانة ميمتو حزينة

زينيو يا مزين بموس الذهب

لا توجعو يا مزين عشنو عزب

وبعد أن انتهى أبو كامل انطلقت الحناجر مكملة غناءها:

هاتو لنا هالعريس تنشوف حلاته

تنشوف بياض عنقو من زرق شاماته

مسعد يا عريس ما أكثر اخواته

ما أكثر بنات عمه ما أكثر قراباته

قامو له بعرسه ما احتاج غرايب

ثم توجه العريس إلى الحمام، حيث شارك أبناء عمومته في الطقوس، واحد يفرك ظهره، وآخر يسكب الماء الساخن

على جسده، وهم يهزجون، والنساء يزغردن خارج الحمام.
وبعد الحمام طاف رجال العائلة بالعريس على حصان مزين في شوارع البلدة، وكانوا يغنون:

درج يا غزالي يا رزق الحلالي

درج يا حبيبي ريتك من نصيبي

احمر يا زر البنــدورة مسعد يا جوز الغندورة

اخضر يا قرن البامية مسعد يا جوز الغاويــة

وفي منزل العروس كانت هادية تخضع لطقوس مشابهة في غرفة الحمام، حيث تجمعت نساء شابات وبدأن بإزالة الشعر الزائد عن جسمها باستخدام العقيدة، يقطعنها أقراصا يقمن برقها ثم يلصقنها تباعا على أماكن مختلفة في جسد العروس، يتركنها لفترة وجيزة ثم ينزعنها بسرعة، وسط الأهازيج التي تهون على العروس الإحساس بالألم

الذي يتسبب به نزع الشعر بتلك العجينة اللزجة.

بعد أن ينتهين من العملية يبدأن بغسل جسدها بالصابون ويسكبن عليه الماء الساخن، وهن يتغامزن ويتبادلن أحاديث ماكرة عن ما ينتظرها بعد ساعات، وهي تبتسم بخفر.

ثم يخرج الجميع من الحمام، والعروس ملفوفة بمنشفة كبيرة، إلى الغرفة التي أعدت فيها الملابس الداخلية الفاخرة وثوب العرس، فيزينها ويساعدنها بارتداء الثوب، ويتوجه الجميع إلى الصالة بانتظار أهل العريس، الذين يأتون لاصطحابها إلى منزله.

في منزل العريس انتهى طارق من ارتداء حلة العرس السوداء الأنيقة، وسكب على رأسه كمية من العطر من زجاجة اشتراها له والده من محل عطور باريس في يافا،

وتوجه إلى الصالة الكبيرة حيث أقيم اللوج، وهو منصة مزينة وضع عليها كرسيان خاصان لجلوس العريس والعروس، التي توجه رجال العائلة لإحضارها في سيارة خاصة استأجرها أبو طارق مع سائقها من إحدى الشركات في يافا، تكفلت الشركة بتزيين السيارة بالاشرطة الملونة والورود. استئجار السيارة أثار لغطا بين رجال العائلة وشيئا من الاستنكار، لأن فيه خروجا على المألوف. العروس في القرى تحضر إلى بيت عريسها على عربة حنطور مزينة بشكل خاص، يجرها زوج من الخيول المطهمة. أبو طارق خرج على التقاليد في أكثر من واحد من طقوس العرس، فهو يريد دائما أن يكون متميزا عن الآخرين في القرية، وليست هناك عوائق مادية لذلك.

أما أغرب نهفاته التي أثارت وستثير لغطا في القرية؛ فهي

استحضاره راقصة لتحيي ليلة عرس ابنه طارق.

كان شباب القرية متحمسين ومتشوقين لحضورها وكذلك الصبايا، أما المسنون فقد استنكروا ذلك، بل وكلفوا الشيخ عبدالرحمن بالتحدث إلى أبو طارق ومحاولة ثنيه عن الموضوع، لكنه أصر على خطته، وتعاقد مع ملهى ليالينا ليرسل له إحدى الراقصات لإحياء الحفلة.

سمع الجميع بوق السيارة مؤذنا بوصول العروس؛ فخفت نساء العائلة لاستقبالها بالأهازيج والزغاريد، وسلمها والدها لأبو طارق الذي قادها إلى الصالون حيث كان عريسها يتنظر، فأمسك بيدها وأجلسها على كرسيها بجانبه.

اشتعلت الصالة بالزغاريد والسحجة أي التصفيق بالأكف، على إيقاع غناء أم العريس وأخواته وبنات أعمامه:

لأعد الألف والمية على الحصيرة وأجيبك عداري يا أميرة.

لأعد الخمسمية مع الميتين وأجيبك عداري يا كحيلة العين

يا محنية بالحنة والحنة قميصك الليلة باتي عنا وبكرة لعريسك

يا محنية بالحنة والحنة بدلاتك الليلة نامي عنا وبكرة عند حماتك

حين بلغ جو الفرح أوجه في الصالة، بدأ رجال يحملون آلات موسيقية ويتواردون الواحد تلو الآخر، واستقبلوا بالتصفيق والصفير. توجه أفراد التخت إلى منصة خاصة أعدت لهم. توقفت النساء عن الغناء، وانتظر الجميع أن تبدأ الفرقة العزف. بدأ أفرادها بدوزنة آلاتهم، ثم حين انتهوا دخل عازف القانون في وصلة منفردة، انضمت إليه الآلات الأخرى في نهايتها. فجأة علا هرج ومرج في

القاعة، تصفيق وصفير وهتاف، فقد دخلت بخطوات راقصة فتاة ترتدي بذلة رقص، وبدأت تهز وسطها على أنغام الفرقة.

اشتعلت الأكف بالتصفيق، ووقف الجالسون في الصفوف الخلفية حتى يتمكنوا من رؤيتها. توجه أبو طارق إلى الراقصة ووضع أوراقا نقدية في صدريتها، فاشتعلت الصالة من جديد بالتصفيق والصفير.

استمرت وصلة الرقص ما لا يزيد على ربع ساعة، غادرت بعدها الراقصة، تاركة أسفا في القاعة، ما لبث أن تبدد بفعل الأنغام التي عزفتها الفرقة.

عند منتصف الليل بدأ الحضور بالانصراف، وحين انصرف آخرهم أمسك طارق بيد عروسه، وتوجه بها إلى الغرفة التي ستشهد ما تبقى من طقوس الليلة المثيرة.

رمضان هل هلاله

لم يبق على الشهر الفضيل سوى أيام. ازدانت المدينة بالأنوار، الفوانيس الملونة زينت نوافذ المتاجر وبعض بيوت الموسرين، والمآذن أيضا ازدانت بالمصابيح. شهد سوق البلابسة وسوق المنشية نشاطا غير عادي، فقد اكتظت المتاجر بالسلع الرمضانية الخاصة، كقمر الدين والجوز، اللذين يستوردان من سوريا، والبندق والتين المجفف من خيرات تركيا، والتمر من أريحا وغزة.

أجواء فرحة تغمر المدينة، التجار يستبشرون بالموسم والأرباح التي سيجنونها جراء زيادة الاستهلاك، والفقراء الذين سينعمون بشهر يشبعون فيه بفضل الصدقات وزكاة الفطر التي يوزعها الصائمون في آخره. أئمة الجوامع الذين سيحظون بوجبتين ثريتين للإفطار والسحور

كل يوم، والعائلات بصغارها وكبارها الذين ينتظرون بدء شهر الصيام بفارغ الصبر.

بدأت الاستعدادات بشراء التموين الرمضاني، فالوجبات الرمضانية لها طابع مختلف عن وجبات باقي السنة: تبدأ عادة بشرب العصائر والمشروبات الخاصة، كالتمر هندي والعرقسوس، وذلك عقب الأذان مباشرة. ثم يبدأ الصائمون الوجبة بحساء الدجاج والشعيرية أو العدس، ثم المقبلات، وعلى رأسها الحمص والفول والمخللات من خيار ولفت. يلي ذلك الوجبة الرئيسية، التي لا بد أن تتبعها الحلوى الرمضانية الخاصة كالقطايف والعوامات.

توجه رضا إلى سوق المنشية وتسلم الطلبيات التي كان قد أوصى عليها قبل أيام: 2 كيلو صنوبر، تنكة عجوة، وصندوق تمر، و5 كيلو جوز، وصفيحتان من الحلاوة

الطحينية. اشترى أيضا 30 لوحا من قمر الدين وكميات من البهارات. نقل البضاعة بمساعدة حمالين من السوق إلى السيارة التي تنتظر أمامه وعاد إلى البيت.

لم ينم أحد في بيت أبو سليم في الليلة الأولى. ازدان البيت القديم والجديد بالفوانيس الرمضانية والمصابيح الملونة، وجلست أم سليم وأم رضا وهالة ومها وبسام في الصالة يتسامرون ويحتسون الشاي بالعطرية.

- الله يجعلك علينا شهر مبارك.

قالت أم سليم.

- السنة أجا بنص الصيف، الله يعينا على صيامه.

قالت أم رضا.

- بليتو قمر الدين؟

سأل بسام.

ردت الوالدة مبتسمة: بلينا يما·

قالت هالة: انت ما بهمك من رمضان إلا بطنك·

ضحكت مها وعلقت بدورها: إيش فيها؟ وأنا كمان بموت بأكل وحلويات رمضان·

- ايمتى بدنا نتسحر ؟

سأل بسام·

- بدري يما عالسحور·

قالت الوالدة، ثم توجهت إلى أم رضا: جاب رضى حلاوة؟

- جاب تنكتين·

- ان شالله على فستق حلبي·

قالت مها بفرح·

- ايوا تشهوني·

ردت هالة وأضافت: ولك الصيام عبادة مش شهونة·

علق بسام: إنتي شاطرة بالفلسفة، وعند الأكل بتوكلي أكثر منا كلنا.

ضج الجميع بالضحك، وقالت أم رضا: صحتين وعافية.

في الدار الجديدة كان البيك وسليم بدورهما يستعدان على طريقتهما الخاصة.

كانت المائدة عامرة بالمقبلات، والكؤوس معدة في الصالة بانتظار الضيوف الذين دعاهم البيك إلى حفلة خاصة يودعون فيها نمط حياة سيتخلون عنه لمدة شهر كامل، ففي رمضان يخلو البيت من الكحول، مع أن البيك وسليم لا يصومان.

سيسهر الجميع حتى ما قبل السحور، يرتشفون آخر الكؤوس ويتسامرون، ثم قبل أن يسمعوا طبل يوسف المسحراتي يدق داعيا النائمين إلى توحيد الدايم يعود كل

إلى بيته ليرقد في فراشه، ليفيق في عالم آخر، عالم ليس خاليا من الأنس، إلا أنه أنس ذو طابع خاص: فيه غناء وموسيقى وسهر، وفيه تلاوة قرآن وصلاة تراويح وحلقات ذكر، وفيه أغان خاصة يستمعون إليها عبر إذاعة الشرق الأدنى، وسهرات تستمر حتى السحور في المنازل والمطاعم.

في حدود الثانية فجرا أعدت أم رضا وأم سليم مائدتين، واحدة جلس إليها جميع أفراد العائلة باستثناء البيك وسليم، عليها أطباق جبنة بيضاء وحلاوة طحينية وحمص باللحمة، ومقبلات بأنواعها.

وأخرى أعدت على صينية خاصة حملها رضا إلى الدور الثاني في الدار الجديدة، مكونة من كبد الخروف المقلي بزيت الزيتون، وأقراص كبة البرغل والمقبلات. سليم ووالده

سيتناولان سحورا مختلفا، لأن معدتيهما تطلبان اللحوم بعد ارتشاف عدد من كؤوس الويسكي.

في بيت أبو ابراهيم جلس الجميع إلى مائدة السحور بدورهم.

- الله يجعلك علينا شهر مبارك.

تضرعت أم إبراهيم.

- آمين.

رد ابو ابراهيم.

تناول الجميع وجبة مكونة من البيض المقلي بالبصل، وأقراص السبانخ، ثم سكبت أم إبراهيم محلول قمر الدين للجميع، وقالت لإبراهيم: بكرة تنساش تجيبلنا حلاوة طحينية.

- حاضر يما.

- وجيب ترمس عشان نبله بكرة.

قالت بهية.

ضحكت هنية وقالت: ولك الترمس مالح، بيخليكي تعطشي ثاني يوم، الدنيا صيف.

- شو خصك انتي؟

ردت بهية.

ابتسم أبو إبراهيم وقال: جيب إلها ترمس يا إبراهيم، خليها تموت من العطش.

- كلكم هسة قلقانين على عطشي؟

انتهى الجميع من السحور ورفعوا المائدة، وتوجهوا إلى فراشهم باستثناء أبو إبراهيم الذي غادر البيت، متوجها إلى المسجد لأداء صلاة الفجر.

كعك العيد

سوق المنشية يعج بالحركة، البضائع الرمضانية تملأ الرفوف والأكياس والبسطات، والبائعون ينادون على بضائعهم، والمشترون يتجولون بين المحلات يسألون عن هذا ويعاينون ذاك.

رضا يجول السوق في مهمة لشراء الجوز والتمر والفستق الحلبي، من أجل استعدادات العيد في بيت أبو سليم.

قبل أيام من العيد تبدأ الاستعدادات في المطبخ لتحضير كمية كبيرة من الكعك بأنواعه، فزوار العائلة كثيرون: أصدقاء البيك وشركاؤه التجاريون، وبعض الأقارب الذين يحضرون من الشعراوية خصيصا لتهنئته بالعيد.

استقر رضا على أحد المحلات وأوصى على الأغراض، وطلب إيصالها إلى منزل أبو سليم.

في مطبخ الدار القديمة تجلس أم سليم وأم رضى تعدان عجينة الكعك، وهالة ومها وفتحية يساعدن بإحضار هذا أو ذاك من الأغراض من مخزن المؤن.

- فؤاد جاي السنة عالعيد؟

سألت هالة.

- انشالله. دايما بيحب يقضي العيد الصغير معنا، والسنة جايب معه ضيوف.

أجابت الوالدة.

- لازم نزيد المعمول بالتمر إذن.

قالت هالة مبتسمة، وأضافت: أكثر اشي بحبه.

- انشالله يوصل بالسلامة.

قالت أم رضا ، وسألت:

- مين الضيوف اللي جايبهم؟

- زملاؤه، أميركان.

أثار الموضوع اهتمام هالة ومها.

- شباب؟ بدهم يسكنو عنا ؟

سألت هالة باهتمام واضح.

- ولا وين بدهم يسكنو ؟ ضيوف أخوكي.

وصل رضا باللوازم.

- حطها عندك يا بنيي.

قالت أم سليم.

- ناوليني القوالب يا مها.

وبدأ الجميع بعملية تشكيل الكعك باستخدام القوالب.

حين انتهوا من رص أقراص الكعك على الصواني غطوها بقطعة قماش، وتركوها تستريح بضع ساعات قبل أن ياخذها رضا إلى الفرن، ويعود بها ساخنة طازجة،

يرشون عليها السكر الناعم، ويتذوقونها مع فنجان من القهوة بالهال، ثم يحفظونها في علب خاصة في إحدى الخزائن في الصالون، بانتظار صبيحة العيد.

في منزل أبو إبراهيم في أطراف البيارة يتكرر المشهد: أم إبراهيم وهنية وبهية يفترشن أرض المطبخ ويعددن الكعك.

- ما فيه فستق حلبي ؟

سألت بهية.

- لا يما الفستق الحلبي غالي بنقدرش عليه.

مطت بهية شفتيها في حنق.

أما هنية فعلقت: بس فيه كعك بتمر ولوز.

- لوز؟ حتى جوز ما فيه؟

- وبعدين فيكي يما ؟ حتى اللوز يا دوب بنقدر عليه، لولا دار أعمامك في الشعراوية الله يخليلنا اياهم.

دخل إبراهيم: ايمتى بخلص المعمول؟

- ساعتين زمان يا حبيبي.

- ايوا هذا اللي شاطر فيه، فايدة ما فيه منك بس للأكل.

قالت بهية.

أجاب إبراهيم محتجا: كيف هالحكي؟ ومين اللي اشترى الطحين والتمر من السوق ؟ حضرتك؟

- طيب تعال كسرلنا لوز.

- مش فاضي.

- ليش شو وراك؟ سينما؟

سألت بهية بسخرية.

رد إبراهيم بحنق: لا مش سينما، رايح أساعد أبوي.

خرج إبراهيم وعادت بهية وهنية إلى عملهما، بينما خرجت الوالدة إلى الفرن لإعداده.

بقي ثلاثة أيام على العيد، وأجواؤه تغمر المدينة منذ الآن. العائلات تشتري ملابس جديدة لأطفالها، محلات بيع الملابس تعمل حتى ساعة متأخرة من الليل، دور السينما تعلن عن عروض خاصة، سينما الحمرا تستضيف الفنان المصري يوسف وهبي وفرقته، المطاعم أيضا تضاعف استعداداتها، فهي تستقبل عددا كبيرا من الضيوف في أيام العيد، خاصة من القرى المجاورة، حيث زيارة المطاعم وتناول وجبة فيها هو جزء لا يتجزأ من برنامج العيد لصغار الشبان، مثله مثل حضور إحدى حفلات السينما، وهذه كلها برامج ترفيهية بحاجة لمناسبة خاصة كالعيد مثلا، حيث يحصل الأولاد من ذويهم على العيدية، مما يتيح لهم إمكانية تغطية التكاليف.

عيد قبل العيد

لو عرف الوالد لأصيب بالسكتة القلبية. هو يريدني بعيدا عن السياسة، أتفرغ لدراستي في كلية الطب، وإن كان لا بد من نشاط آخر بين امتحانين فليكن نشاطا ترفيهيا، كزيارة أحد البيوت في ساحة البرج التي يعرفها جيدا، فلا يمكن أن تخلو زيارة من زياراته الكثيرة إلى بيروت من تلك البرامج الترفيهية، بل هو كثيرا ما يأتي إلى هنا مع بعض أصدقائه لهذا الهدف تحديدا. هو طبعا ليس من زبائن ساحة البرج، بل يحل ضيفا على أوساط أكثر رقيا، وإن كان المغزى واحدا.

لم أزر ساحة البرج مرة واحدة، فأنا لا أستطيع أن أقيم علاقة مع جسد مستلب. كيف يمكن شراء الجنس؟ إن لم يكن تتويجا لرغبة قائمة على الانسجام الروحي قبل

الجسدي فلن يكون أكثر من إفراغ لغريزة حيوانية.

لو عرف الوالد لهرع إلى بيروت بليل ما هو بنهار، فليس الموضوع بالنسبة له إشغالا لي عن مهامي الدراسية فحسب، بل هو لا يخلو من أخطار، خاصة منذ رحيل الزعيم إلى البرازيل ومداهمة السلطات مراكز الحزب. (الحديث هنا عن أنطون سعادة والحزب السوري القومي الاجتماعي).

للحزب وجود قوي في الجامعة، بالرغم من المعلومات التي نقلها رئيس الجامعة شخصيا إلى سلطات الانتداب الفرنسي، والتي انتهت باعتقال الزعيم. هذا لم يضعف الحزب في الجامعة، وهو الآن، وبعد مضي أكثر من سبع سنوات على الحادث، وفي غياب الزعيم، له حضور قوي بين الطلاب، ويزداد تاثيره مع تصاعد التطورات في

فلسطين، والأنباء التي تنتشر بين الرفاق كالنار في الهشيم عن زيادة موجات الهجرة اليهودية من أوروبا.

حضرت اجتماعي الحزبي الأول قبل إجازة العيد بأيام، وكان شعورا لا أستطيع وصفه بسهولة. الجو السري الذي طغى على الاجتماع جعلني أحس بأهميتي، وأنني جزء من شيئ خاص ومهم، وتملكني الإحساس بأنني أنتمي إلى قضية، عوضا عن الانتماء الواهي الذي يربطني بالعائلة.

في الاجتماع الأول لم أكن متهيبا، وبالرغم من الهيبة التي كان يفترض أن يفرضها وجود رفاق من المؤسسين، الذين دخلوا السجن بسبب الحزب، إلا أني شاركت بنشاط في النقاش الذي دار أثناء الاجتماع. أثرت قضية اللغط الذي يدور حول تشابه بين بعض الرموز الإيديولوجية للحزب

ورمز الحزب النازي الألماني، خاصة موضوع الزوبعة والشعار الذي يذكر بالصليب المعقوف. أنا أعادي النازية ولا أقبل أي أرضية مشتركة معها مهما كانت واهية.

الرفيق فسر لي شكل الشعار بأنه قائم على دمج الهلال بالصليب في وحدة جديدة (الزوبعة)، وأن الزوبعة تعني الحركة التي تتفجر من السكون والجمود (سوريا قبل الحزب وبعده) حركة حياة تطلق من مكامن الأمة قوة روحية تسيطر وتستنبط وتتغلب، ما أجمل هذا الكلام !

لفتت جرأتي الانتباه، فقد أخبرني رفيقي حسن، وهو من دفعتي في كلية الطب، ان الاعضاء الجدد لا يوجهون أسئلة ولا يناقشون، بل يصغون بانتباه إلى ما يقوله الرفاق.

هذا لم يرقني إطلاقا، فأنا لا أستطيع ولا أريد أن أعطل

ميلي إلى النقد والتمحيص.

على كل حال لم يعبر الرفيق قائد الخلية عن أي استياء من أسئلتي، بل أجاب عليها بكل رحابة صدر.

إذن توجهت إلى يافا لقضاء إجازة العيد، وأنا أحس بالنشوة، وكأني ولدت من جديد، وكان لإحساسي بأني أملك هذا السر أثر لا أستطيع وصفه من الشعور بالتميز والتسامي، وكرس احتقاري لنمط الحياة التي يعيشها والدي وشقيقي سليم. مستقبل البلد في مهب الريح، وهما يلهوان ويعبثان ويبذران الأموال التي يحصلان عليها من عرق الفلاحين.

ابتسمت بشماته وأنا أتخيل الصدمة التي ستصيب والدي لو علم أن بيته، حصنه المنيع، قد اخترق.

هو يبني علي آماله الخاصة، يريدني ديكورا إضافيا

لمكانة العائلة الاجتماعية، فهو يملك الأراضي والأموال والنفوذ، لكنه في داخله يحس بالنقص في أوساط أصدقائه، أبو إلياس وإسحق وغيرهم من رجال الأعمال اليافاويين المتعلمين. لا يدرك أن حصولي على شهادة الطب من الجامعة الأمريكية لن يغير شيئًا من وضعه النشاز، فهو يعيش في يافا، ألا أنه يفرض نمط حياة الشعراوية على العائلة: نساء العائلة حبيسات المنزل، يقمن في يافا ولكنهن لا يرين من حياة المدينة شيئًا. أبو إلياس يصحب زوجته وابنته تيريز إلى الحفلات في سينما الحمرا، ومآدب العشاء في المطاعم الراقية، أما والدتي فلم تخرج مع والدي مرة واحدة، تقضي وقتها إما في المطبخ، تعد الأطباق الشهية له ولضيوفه وعاهراته، أو تتسامر مغ أخواتي وأم رضا في الصالة إلى جانب فنجان من القهوة.

حين كتبت للوالد أنني سأصطحب اثنين من زملائي الأمريكيين في إجازة العيد رحب بنا وأضاف: بإمكانك أن تصطحب زميلاتك الأمريكيات أيضا.

طبعا لا يمكن أن أفعل ذلك، لن أمارس التحرر الاجتماعي في منزل العائلة الذي تعيش الإناث فيه في عبودية، لن أستطيع النظر في عيني مها وهالة ووالدتي، وثلاثتهن محرومات حتى من الخروج إلا بصحبة سليم أو فزاع. لا يمكن بالطبع أن أشرح هذا للوالد، واكتفيت بأن كتبت له رسالة مختصرة أخبره فيها أنني سأصل بصحبة شابين أمريكيين، جيم وروبرت، وهما من زملائي في الدفعة، فرحب بنا وأخبرني أنه سيخصص لنا جناحا في الدار الجديدة

الشرارة الأولى

وصلنا إلى يافا قبل العيد بيومين، احتضنتني أمي وبكت كالعادة، ثم صافحت روبرت وجيم، وأنا قبلت هالة ومها، وقدمت لهما صديقي فصافحتاهما، واسترقت مها نظرات جريئة من روبرت، هو أشقر الشعر أزرق العينين وأعرف أنها مغرمة بالشقر، يجب أن لا يعرف والدي أو سليم ذلك وإلا هدما المنزل على رأسها، حتى ولو كان الموضوع مقتصرا على الأحلام واختلاس النظرات.

صعدنا إلى جناحنا في الدار الجديدة، حيث كان الوالد في استقبالنا، وتبادل الحديث مع صديقي بلغة إنجليزية أثارت إعجابهما.

في المساء كنا مدعوين إلى منزل أبو الياس بمعية الوالد. أبدى صديقاي إعجابهما بالمنزل، وخاصة الشرفة الكبيرة

المطلة على البحر، والتي سهرنا فيها، وفي وسطها بركة سباحة تضاء في الليل بشكل جميل.

شاركتنا المجلس أم إلياس وابنتها تيريز، وهي في مثل سني، وتدرس إدارة الأعمال في إحدى جامعات الولايات المتحدة.

شوينا اللحم على موقد بالفحم إلى جانب البركة، وأبدى صديقي روبرت مهارة خاصة في النش، أما جيم فقد انسجم مع تيريز في حديث حول حياتها الجامعية في الولايات المتحدة وحياته في بيروت. شربنا الكثير من النبيذ تلك الليلة. كان الجو حارا، مع بعض الرطوبة، لكن النسمات البحرية التي كانت تهب بين الفترة والأخرى، إلى جانب النبيذ الممتاز الذي أحضرته من البقاع، كانت تلطف الأجواء وتضيف إليها مسحة شاعرية.

كلما زرت أصدقاء والدي أحس بالغبن، بسبب حياة الرق التي تعيشها والدتي وأختاي. كان وجود أم إلياس وتيريز معنا طبيعيا جدا، وشاركتانا الشرب والسمر، مما لفت انتباه روبرت، الذي سأل عن هذا الفارق بين عائلتي وعائلة أبو إلياس، وكلاهما عائلة يافاوية. أجلت الحديث عن الموضوع إلى وقت لاحق. أما جيم فقد طلب التعرف على حياة عائلة يافاوية بسيطة، فوعدته بزيارة عائلة ناطور البيارة، أبو إبراهيم، في اليوم التالي.

قمنا بجولة في البيارة في الصباح، وتمشينا معا حتى آخرها، حيث منزل أبو إبراهيم.

طرقنا بابهم دون سابق موعد، فاستقبلتنا أم إبراهيم: أهلا وسهلا - تفضلوا.

- كيف الحال يا أم إبراهيم ؟

- الله يحفظك يا بنيي، تفضلوا.

قادتنا إلى إحدى الغرف، حيث كات ابنتاها منهمكتين في أعمال منزلية، إحداهما تقشر البطاطا، والأخرى تقوم بتنقية الرز على صينية كبيرة.

حين دخلنا وقفت إحدى الفتاتين فجأة وانسلت بسرعة من الغرفة، بينما بقيت الأخرى مكانها.

- لا تآخذونا يا خالتي الأوضة مكركبة، بنحضر للطبيخ.

شعرت بالإحراج؛ لأننا جئنا بدون سابق إنذار ووضعنا العائلة في مازق.

- تفضلوا. بهية، روحي جيبي كراسي.

قلت مقاطعا: لا والله ما بتروح، بدنا نقعد عالأرض.

ودعوت زميلي للجلوس على حشية على الأرض، وأم إبراهيم تداري إحراجها، أما الفتاة فكانت تنظر إلي

نظرات فيها شيء من الضيق.

كررت اعتذاري وقلت: مش رايحين نطول بس بدنا نشرب كاسة شاي ونمشي. أصحابي أميركان وحبوا يتعرفوا على حياة الفلاحين في بلادنا.

فجأة نظرت الفتاة إلي وقالت بغضب: إحنا حياتنا مش فرجة، وبيتنا مش سيرك.

نهرتها والدتها، أما أنا فأصبت بمس، فجأة انتبهت إلى أني بمواجهة شخصية قوية، ليس مجرد بنت ناطور بيارتنا، ولأول مرة انتبهت إلى ذكاء يشع من عينيها. وكذلك لفت انتباهي أنها لا تغطي رأسها كأختها؛ بل تركت شعرها الطويل المفلفل ينسدل بحرية وفوضية على كتفيها. كيرلي هي الكلمة الدقيقة في الإنجليزية لوصف شعرها، ولا أجد لها مقابلا مناسبا بالعربية.

- لا العفو العفو، إنتو أهلي، ولو !

شعرت بالخجل ولم أترجم لصديقي اللذين كانا يتأملان محتويات الغرفة، ويقارنان بؤسها بالبذخ الذي شاهداه في منزل والدي وقصر أبو إلياس.

نهضت الفتاة دون أن تؤثر فيها عبارات الاعتذار التي كررتها، وغادرت الغرفة. بعد قليل عادت ومعها صينية عليها إبريق شاي وأكواب. لم أرفع عيني عنها منذ دخولها من الباب حتى جلوسها. جلست وبدأت تسكب الشاي.

المفاجأة الثانية كانت حين خاطبت صديقي بإنجليزية أنيقة، وقالت لهما إن الشاي محلى حسب العادة، فإن كانا يفضلانه بدون سكر فستعد وجبة أخرى خصيصا لهما.

شكراها وابتسم روبرت وقال إنه يفضله محلى، وكذلك

جيم.

عادت الوالدة التي كانت قد خرجت من الغرفة قبل قليل، ومعها طبق فيه كعك العيد، ووضعته أمامنا وابتسامة ترحيب على شفتيها.

- تفضلوا.

لم تشاركانا شرب الشاي ولا أكل الكعك، فلا بد أنهما كانتا صائمتين.

- بأي صف انتي في المدرسة؟

سألتها بالعربية، فردت علي بالإنجليزية: - أعد للثانوية العامة.

لا يمكن.! هذه الفتاة تلقي علي المفاجأة تلو الأخرى. بنت الناطور الذي تنظر إليه عائلتي على أنه أحد الخدم الكثيرين في حياتها لها شخصية قوية، ستحصل على

الثانوية العامة وتتحدث الإنجليزية بطلاقة وثقة، وهي جميلة، عيناها حالمتان، وشعرها البوهيمي يضفي عليها صورة لا تتناسب إطلاقا وهذا البؤس الذي يحيط بها.

لم تنظر إلي مرة واحدة كأنها تعمدت أن تتجاهلني، وتبادلت مع روبرت وجيم بضع عبارات بالإنجليزية، أما أنا فلم توجه لي عبارة واحدة، أهملتني، بعكسي تماما، فمنذ أن نطقت سيطر حضورها علي ولم أعد أحس بوجود غيرها. بقيت عيناي مسمرتين عليها تلتهم كل حركة تأتي بها، وكل كلمة تنطقها.

- تفضلوا يا خالتي، كلوا.

قالت الأم.

- وين أبو إبراهيم ؟

- في الشغل، نناديه ؟

- لا ما فيش ضرورة، بس كنت بدي أسلم عليه.

- واجبه انو يروح يسلم عليك، ما دريناش إنك جيت.

- وصلت امبارح بس، وأنا واجبي أروح أسلم عليه، رح نمر عليه في الشغل واحنا مروحين.

نظرت إلي الفتاة بعد طول تجاهل وهمت بقول شيء، ثم يبدو أنها غيرت رايها.

بدأت إشغال نفسي بتفحص محتويات الغرفة لأداري ارتباكي: حشيات على امتداد الجدران للجلوس، وبساط رخيص على الأرض. في إحدى الزوايا خزانة بأبواب زجاجية تحفظ فيها أطباق وأكواب مختلفة، والجدران عارية تماما. الفقر يشع من كل أرجاء الغرفة ولم يفاجئني ذلك، ما فاجأني هو أن العائلة سمحت للفتاة بالدراسة حتى نهاية المرحلة الثانوية، وهو شيء ليس شائعا في

أوساط الفلاحين.

شكرت أم إبراهيم والفتاة التي عرفت أن اسمها بهية، وودعنا العائلة وخرجنا بعد أن صافحنا الأم وابنتها. قبل أن أخرج من الباب قمت بحركة لا إرادية: استرقت نظرة أخيرة من بهية، فلاحظت ارتباكها هذه المرة. أسعدني ذلك، فهو ينم عن اهتمام من نوع ما، بعد أن كان تجاهلها طوال الدقائق السابقة يسبب لي الألم، لا أدري لماذا. ربما كان ذلك نابعا من شعوري بالذنب؛ لأنني أعطيت انطباعا سيئًا للعائلة لا يمت بصلة بطبيعتي؟ ربما...

ما إن خرجنا من الباب حتى قال جيم بذهول: ما هذا ؟ إنه عالم مختلف تماما !!!

- مختلف عن ماذا ؟

سأله روبرت.

- أعني المقارنة محرجة بين منزل عائلة فؤاد وهذا المنزل !

- ماذا كنت تتوقع ؟ هذا منزل فلاح بسيط.

أحسست بالحرج فعلا ولم أعلق.

- ما بالك ؟

سألني روبرت.

- لا شيء.

- تلك الفتاة، لم تقصر بك أبدا.

قال جيم ضاحكا.

- وتركت أثرا عليك.

علق روبرت وغمز بعينه.

ابتسمت ولم أقل شيئا. كنت أحاول أن أتحرر من رفقة صديقي ولو للحظات، أن أخلو لنفسي رغم وجودهما معي وتوجيههما الحديث لي، أن أحاول استعادة ما حصل،

حضورها بقي يسيطر علي منذ غادرنا المنزل.

صبيحة العيد

يوم الوقفة الكبيرة توجهت عائلة أبو إبراهيم إلى منزل أبو طارق في بيت دجن لقضاء العيد هناك. هذه عادة دأبوا عليها منذ انتقالهم من باقا إلى يافا، يجتمعون في بيت أبو طارق في كل المناسبات المهمة، وأحيانا يحضر الشقيقان الآخران أبو فلاح وأبو زهدي من باقا مع بعض أفراد عائلتهما، وفي أحيان أخرى يسافر الجميع إلى باقا، كما يفعلون في موسم الزيتون مثلا، حين يذهب الجميع إلى حيث أملاك العائلة للمساعدة في قطفه.

في صبيحة العيد استيقظ الرجال مبكرا وتوجهوا إلى مسجد القرية، وبعد الصلاة خرج الجميع واصطفوا في صفين متقابلين أمام المسجد الشرقي، وكان كل من يخرج يصافح الرجال على الصفين ويصطف معهم، إلى أن

خرج جميع المصلين. وحين انتهوا توجهوا عبر طريق البايكة إلى المقبرة، وهم يكبرون ويهللون، فزاروا الأضرحة، ثم عاد كل إلى منزله.

كانت وجبة الإفطار قد أعدت في بيت أبو طارق، واصطفت الأطباق على المائدة، وبينها، بالإضافة إلى الأطباق التقليدية، كاللبنة والحمص والبيض، أخرى تليق بالمناسبة، كانت هناك كبدة الخروف، ومكعبات لحم الضأن المقلي بزيت الزيتون.

- كل سنة وانتو سالمين.

تبادل الجميع التهاني، وبعد الإفطار جاء أبو طارق؛ فقدم العيدية لزوجة أخيه وابنتيها وابنها إبراهيم، بعد أن صافحوه ولثموا يده.، كذلك قدم أبو إبراهيم العيدية لزوجة أخيه وابنه وبناته، ثم توجه الرجال إلى الديوان الذي صفت

على أرضه الحشيات والمساند، ووضعت أباريق القهوة وعلب الشوكولاتة، لاستقبال المهنئين بالعيد من أبناء القرية.

وفي يافا أفاق البيك وابنه سليم مبكرا وانطلقا إلى مسجد حسن بيك، الذي لا يبعد كثيرا عن بيتهم في المنشية.

يحرص البيك على أداء صلاة العيد في المسجد، على الرغم من عدم تدينه، كنوع من المراسم الاجتماعية المرتبطة بمركزه، حيث يعود بعد الصلاة بصحبة بعض المعارف ليستقبلوا الزوار بمختلف فئاتهم: ما بين عمال وموظفين يعملون في خدمة البيك، وشركاء تجاريين بعضهم مسيحيون أو يهود، مثل أبو الياس والخواجة إسحق، وحتى الميجور جيفري الذي لا يفوت عيدا واحدا، وإن كان يفضل الحضور برفقة بعض ضباطه في وقت متأخر، بعد

أن يكون المهنئون بالعيد من أهل يافا قد انصرفوا.

افاق فؤاد وصديقاه مبكرين؛ لأنه أراد أن يصحبهما في جولة في المدينة ليشاهدا أجواء العيد.

كانت محطتهم الأولى سوق اسكندر عوض الذي كان يعج بالمتسوقين من أبناء القرى المجاورة، فكثير من أبناء الفلاحين لا يحضرون للتسوق إلا في مواسم الأعياد، حيث يحصلون على العيدية التي يستطيعون إنفاقها على ما يشاؤون من الملذات التي تتيحها المدينة. صبية وشبان صغار بوجوه فرحة، يرتدون ملابس جديدة، بعضهم يحمل ألعابا اشتراها لتوه أو حصل عليها، والبعض يتأمل نوافذ المحلات التجارية بحسرة؛ لأنه شاهد لعبة يزيد ثمنها على كل ما جمعه من عيديات. الكبار يتبادلون عبارات التهنئة، والصغار يأكلون الحلوى في الشوارع. وبين الفترة

والأخرى ينفخون في أبواق وزمارات اشتروها لتوهم، ابتهاجا بالعيد.

طلب جيم الدخول إلى مقهى شعبي لتدخين النارجيلة التي تعلق بها في مقاهي بيروت، فأخذهما فؤاد إلى مقهى شيخ الشباب في سوق آخر. جلسوا إلى مائدة وسط المقهى وطلبوا نارجيلة لجيم، وشايا بالنعنع لفؤاد وروبرت.

لفت تدخين جيم بمظهره الأجنبي الواضح للنارجيلة الأنظار، وكان بعض الشبان ينظرون إليه وابتسامات على شفاههم، ويتوقعون أن يبدأ بسعال قوي كما يحصل مع المبتدئين، لكنه فاجأهم بأنه كان ينفخ دخان النارجيلة باحتراف.

- كان يجب أن ترتدي قنبازا كأي فلاح فلسطيني.

قال فؤاد مبتسما·

- صحيح، هل تستطيع أن تحصل لي على واحد؟

- طبعا·

- إذن أريد أن أرتدي واحدا أثناء إقامتنا هنا·

ضحك روبرت: سيكون منظرك نشازا·

- لماذا؟ لا أظن ذلك·

- يجب أن تربي شاربا كثا·

- لا أظن ذلك، ليس لكل الفلاحين الفلسطيين شوارب·

خرج ثلاثتهم من القهوة، وتمشوا باتجاه كنيسة القديس بطرس الواقعة على تلة صغيرة مطلة على البحر· سأل روبرت إن كان لزيارة الكنيسة التاريخية يوم عيد الفطر حساسية خاصة فرد فؤاد بالنفي·

حين وصلوا إلى الكنيسة المشيدة على طراز الباروك

المعماري، وجدوا جنديين بريطانيين يقفان في بابها ومنعاهم من الدخول.

استفسر روبرت مستغربا عن السبب، فقال له أحد الجنديين إن أحد كبار الضباط يرافق وفدا من وزارة الخارجية في الداخل، ويمنع دخول السكان المحليين لحين انتهاء زيارة الوفد.

- ولكنا لسنا سكانا محليين كما ترى.

انتبه الجندي إلى اللكنة الأمريكية التي يتحدث بها جيم واراد أن يوعز لهم بالدخول، ثم توقف عند ملامح فؤاد، وسأله: وأنت ؟ من أين أنت ؟

- أنا من هنا ، من يافا.

- ممنوع اذن. بإمكان صديقيك الدخول، أما أنت فبإمكانك انتظارهما هنا.

رد روبرت بعصبية: أي هراء هذا ؟ نحن هنا ضيوف عنده، هو ابن البلد ونحن الضيوف.

- آسف، هذه هي الأوامر.

- لا نريد إذن.

- كما تشاءان.

لم يفاجئ الوضع فؤاد، ولكن جيم وروبرت شعرا بالحرج، خاصة روبرت الذي احمر وجهه من الانفعال.

- هذا فظيع.

قال لفؤاد.

- ولكنه قطرة في بحر مما نتعرض له هنا.

- غريب، ولكن كبار الضباط الإنجليز يزورون والدك في منزله.

- صحيح، وهو يتمتع بامتيازات حين يكون برفقتهم أو

يحمل توصيات منهم، أما هذان الجنديان فلا أتوقع أن يكونا يعيان العلاقة الخاصة لوالدي برؤسائهما.

أبو الفوز في المخبأ السري

استيقظ رضا على صوت طرق شديد على باب البيت، توجه إلى المدخل وسأل: مين؟

- أبو الفوز، إفتح بسرعة.

فتح الباب فانسل إلى الداخل ثلاثة رجال ملثمين.

- صحي أبو سليم، ضروري.

اقتادهم رضا إلى الصالة في الطابق الثاني، وتوجه بخطى مترددة إلى غرفة نوم البيك. طرق الباب أكثر من مرة حتى جاء صوت من الداخل: - مين هاذ ؟-.

- أنا رضا، أبو الفوز ومعه اثنين عاوزينك.

نهض أبو سليم وارتدى الروب، ودخل الصالة دون أن يبدو عليه أنه تفاجأ من طرق الرجال الثلاثة باب منزله قبيل الفجر.

- خير يا شباب؟ شو فيه؟

- احنا مطاردين يا أبو سليم، محتاجين نختفي عندكم أكم يوم.

- طيب بسيطة. رضا، خذهم.

اقتادهم رضا بصمت عبر الممرات إلى مخزن الغلال، حرك بعض أكياس الحنطة والبرغل من مكانها، ورفع لوحا خشبيا فبانت تحته فتحة ضيقة. سلط مصباحه اليدوي على الفوهة فبان سلم حديدي.

- اتفضلوا، عارفين الطريق، صح؟

- صح.

قال أبو الفوز ضاحكا، وتقدم رفيقيه هابطا إلى حجرة واسعة تحت الارض، ليس فيها اضاءة، لذلك أعطاه رضا مصباحه اليدوي.

بعد أن وصل ثلاثتهم إلى قاع السلم أعاد رضا اللوح الخشبي إلى مكانه، ووضع فوقه الأكياس، ثم عاد إلى البيك وأبلغه أن كل شيء على ما يرام.

لم يعد رضا إلى فراشه، فقد بدأت أضواء الفجر تتسلل عبر النوافذ. توجه إلى مطعم أبو الخل وأحضر أطباقا مليئة بالحمص والفول، وكمية كبيرة من الفلافل ليعد الإفطار للضيوف الغامضين.

حين عاد محملا بمتطلبات الوليمة كان أبو سليم قد همس لزوجته بأن لديهم ضيوفا غير متوقعين، وأوصاها بأن تعد لهم وجبة إفطار وشيئا خاصا للغداء.

وضع رضا الأطباق في المطبخ، بينما أيقظت أم سليم ابنتها هالة لتساعدها بإعداد الإفطار الخاص للضيوف.

قفزت هالة من الفراش بحماسة لا علاقة لها بسلوكها

المعتاد، حيث دائما تقضي دقائق طويلة تتمطى في فراشها، وتماطل في النهوض وتجادل والدتها في ضرورة أن تستيقظ قبل الضي

غسلت وجهها في الحمام، واسرعت إلى المطبخ فأعدت الشاي.

- أبو الفوز بيحبه بزعتر بلاط، وين الزعتر يما ؟

- اششش وطي صوتك، هاي الزعتر، خذي.

- وبيحب الجبنة المقلية كمان.

- مش ضروري، هاي فيه حمص وفول وفلافل.

- وبنزيدهن جبنة مقلية وزيت وزعتر ولبنة، شو علينا ؟ صحتين وعافية.

ابتسمت والدتها وهزت رأسها.

- كل شي جاهز يما؟ اروح أنزل الهم اياهم ؟

نهرتها والدتها: هذا اللي ناقص كمان، هسة رضا بيجي وبنزلهم.

ما إن نطقت اسم رضا حتى وصل إلى المطبخ مهرولا ومرتبكا.

- خير شو فيه ؟

سألت أم سليم بقلق.

- ثلاث سيارات جيب وقفت قدام البيت، الله يستر.

اصفر وجه أم سليم، وبدأت تتلو آيات قرآنية وتردد أدعية مختلفة، وأصيبت هالة بالذعر.

- شو بدهم ؟ لحقو يعرفو ؟

- ما بعرف.

فجأة سمعوا طرقا على الباب، فتسارعت دقات قلب أم سليم وهالة، بينما هرع رضا إلى البوابة الخارجية، فتحها

فوجد نفسه وجها لوجه أمام الميجور جيفري: صباح الخير اعذرونا على الزيارة المبكرة، كنت مشغولا يوم أمس ولم أستطع الحضور لأعيد على أبو سليم.

تنفس رضا الصعداء وتقدم الميجور وثلاثة ضباط آخرين، بينما بقي جنديان في كل عربة ينتظرون في الخارج.

في غرفة الاستقبال في الدار الجديدة كان أبو سليم جالسا بانتظار المهنئين بالعيد، فوجيء بهذه الزيارة المبكرة من الميجور جيفري الذي كرر اعتذاره.

اطمأنت أم سليم وهالة بعد أن أنبأهما رضا بهوية الطارقين وغرضهم، وسمحتا له بأن ينزل بصينية كبيرة عليها وجبة الإفطار إلى حيث كان أبو الفوز ورفيقاه جالسين على حشيات على الارض.

نهض أحد الرجال وتناول الصينية من رضا وشكره، بينما

أبلغهم رضا بأن ضباطا إنجليز يزورون البيك، وثلاث عربات عسكرية تحرس المدخل. لم يبد عليهم الاكتراث، فهم على علم بزيارات المجاملة بين البيك وكبار الضباط الإنجليز، وإن كان التحذير ضروريا حتى يتجنبوا الحديث بصوت مرتفع، فجزء من المخبأ يقع تحت مدخل البيت تماما، أي حيث تقف العربات العسكرية والجنود بداخلها، لكن تصميم المنزل بأجزائه القديمة والحديثة من التعقيد بحيث يصعب على غير سكانه معرفة مداخله ومخارجه ومتاهاته.

جن

والله يا جن إنك جن فعلا، إلك أكم يوم مش عارف تقعد،، صهيل ورفس طول الوقت. مشتاق لشهلا يا أزعر ؟ هاي مش إلك، نجوم السما أقرب لك ! أنا عارفتك وعارفة نواياك، بس شو نعمل ؟ شهلا مش إلك، ساكنة بعيد، في الشعراوية، وبتيجيش إلا من السنة للسنة

كانت تحدث الحصان الأسود جن وهي تدلك له ظهره وتكشط جلده بفرشاة خاصة، تنظفها بمشط خاص بين الفترة والأخرى، ثم تمسح عينيه مستخدمة قطعة من الاسفنج، بعدها تنتقل إلى الحوافر، فتنظفها هي الأخرى بنكاشة خاصة وتدهنها بالزيت.

كانت تقوم بذلك أمام الاسطبل، وبعد أن انتهت مسحت عينيه ومنخريه بالماء الفاتر وانتقلت إلى أكثر المهام

حساسية، لها وللحصان، إلى عضوه التناسلي، الذي يجب أن يبقى نظيفا. دائما تشعر بإثارة حين تصل إلى هذا الجزء من المهمة التي تمارسها بشكل شبه يومي، فالعناية بجن هي من المهام التي تكفلت بها عن طيب خاطر، وتبدي حماسة في ممارستها لا علاقة له بالفتور الذي تمارس به الأعمال المنزلية.

حين انتهت من عملية العناية اليومية أدخلت الحصان إلى الإسطبل، وبينما هي تقوم بربطه سمعت أصواتا في الخارج، كانت بعيدة وغير واضحة في البداية ثم اقتربت أكثر، فاستطاعت أن تميز أن أشخاصا في الخارج يتحدثون الإنجليزية. بدأت دقات قلبها تتسارع، وصعد الدم إلى وجنتيها فتشربتا بالحمرة، وأرادت أن تلوذ بالفرار، لكن دخول فؤاد وصديقيه إلى الإسطبل فجأة حال

دون ذلك.

ارتبك فؤاد بدوره.

- صباح الخير جينا نوخذ شوط على جن إذا ما فيه مانع.

استغربت من اللهجة، وكأن هذا الشاب يطلب إذنها ليمتطي حصانه. هي لا تملكه بل تقوم بخدمته، هي خادمة كوالدها ووالدتها وجميع أفراد عائلتها، فما بال هذا الشاب يحدثها كأنها مالكة ؟ ويطلب إذنها وكأنه ليس سيد كل شيء في هذا المكان ؟

- تفضلوا، الحصان جاهز.

قالت دون أن تنظر في عيني فؤاد.

- ما أجمله !

صرخ روبرت.

فرد عليه جيم: ماذا كنت تتوقع؟ عربي أصيل !!

انتهزت بهية انخراطهم في الحديث فانسلت بهدوء، ولكنها لم تستطع أن تتجنب لفت انتباه فؤاد الذي تابعها بنظراته حتى اختفت، وهو بدوره لفت انتباه صديقيه رغم انشغالهما بمعاينة جن.

- ما بالك ؟ واضح أن الفتاة راقتك.

لم يرد على ملاحظة روبرت.

- هي جميلة والحق يقال.

علق جيم.

التزم فؤاد الصمت، وتظاهر بالانشغال بوضع السرج على الحصان وإعداده للرحلة.

هالة

الميجور جيفري وثلاثة من كبار الضباط الإنجليز يحتسون القهوة التركية، ويتذوقون كعك العيد بمعية أبو سليم في الدور الثاني، بينما أبو الفوز ورفيقاه يتناولان طعام الإفطار في القبو الذي يقع جزء منه تحت غرفة الغلال، ويمتد جزء آخر إلى الشارع. كان هذا القبو يستخدم في عهد والد البيك وجده كمخزن للمحاصيل، أو بالأحرى كمخبأ لها من أمام عيون جباة الضرائب العثمانيين، وفي سنين الثورة استخدم لإخفاء الثوار المطاردين من القرى المجاورة. البيك يحرص على إقامة علاقات جيدة مع الجميع، فهو يخفي الثوار ويدعو كبار الضباط الإنجليز إلى ولائم باذخة، كما يقيم علاقات طيبة مع أثرياء اليهود في المدينة. مصالحه تقتضي هذا، لذلك فهو مقبول من

الجميع.

في الدور الأرضي من الدار القديمة تذرع هالة المسافة بين المطبخ، حيث بدأ الإعداد لوجبة الغداء، وغرفة الغلال التي يخفي القبو تحتها أبو الفوز واثنين من رفاقه. همت أكثر من مرة بمغافلة والدتها والنزول إلى القبو، بحجة إحضار صينية الافطار بعد أن انتهى الضيوف من تناوله، لكنها غيرت رأيها في اللحظة الأخيرة. تريد أن ترى أبو الفوز الذي طالما راودت صورته المتخيلة أحلامها، وأثارت أخبار صولاته وجولاته في القرى القريبة خيالها. تصورته بطلا أسطوريا يتحدى إمبراطورية بأكملها، بجنودها وضباطها، بعرباتها العسكرية وطائراتها، يطاردونه منذ سنين ولا يستطيعون القبض عليه، وهو الآن في بيتهم، على بعد أمتار منها، وهي تتحرق شوقا لرؤيته، النظر في

وجهه، تأمل ملامحه. تريد أن ترى تلك الجرأة الخارقة في عينيه. هل هو جريء يا ترى في مواجهة عيني فتاة كجرأته في تحدي الإنجليز؟ هل سيحدق في وجهها أم سيغض الطرف خجلا؟

مرة أخرى دخلت غرفة الغلال وهمت بالإقدام على تلك الخطوة، ومرة أخرى أصابها الرعب حين سمعت صوت سليم في المطبخ، على بعد أمتار.

وضعت أذنها قرب الفوهة واسترقت السمع، ولكنها لم تسمع شيئا، القبو عميق ومعزول. إذن لن تراه ولن تسمع صوته، لكن حضوره الطاغي يملأ عليها كيانها، لا تحس بحضور سواه في هذا البيت الضخم بسكانه الكثيرين.

أبو الفوز في القبو المظلم، وهي تتنقل بين أرجاء البيت الرحبة، المضاءة، المرفهة، لكنها تود أن تكون هناك، معه،

في ظلمة القبو وسكونه، تستمع إلى حكايات مثيرة عن مطاردات وغارات ليلية، عن جبال وقرى وفلاحين، عن بنات آوى وطيور الحجل، عن الحرية خارج هذه الجدران، الحرية التي تسكن روحه حتى وهو أسير قبو مظلم.

ابو الفوز يرتشف ما تبقى من الشاي في كوبه، وهالة تجتر أحلامها وخيالاتها الجامحة، هو تحت، في القبو، وهي فوق، في القصر، تفصل بينهما أمتار قليلة، وجدران سميكة.

يوم إم سليم

في آخر أيام العيد كان فؤاد يحضر لوالدته وأختيه هالة ومها وشقيقه الأصغر بسام مفاجأة، فقد نظم رحلة للعائلة إلى حمامات طبريا. كان صديقاه جيم وروبرت قد غادرا في رحلة إلى القدس بمفردهما، وقرر هو قضاء اليوم مع عائلته في طبريا.

انتهت أم سليم من إعداد المعجنات بأنواعها، المحشوة بالبصل واللحم والصنوبر، والسمبوسك، بالإضافة إلى كبة البرغل.

وضعت هالة ومها الأطباق المليئة بأصناف الطعام في السلال، ونقلها رضا إلى سيارتين من طراز أوبل كانتا تنتظران عند مدخل المنزل.

جلس فؤاد ووالدته وأم رضا في إحدى السيارتين، وأخذت

هالة ومها وبسام أماكنهم في السيارة الأخرى، وانطلقت العربتان مع بزوغ الشمس باتجاه طبريا.

لم يبذل فؤاد مجهودا بإقناع الوالدة، فهي تعاني من ألم في الساقين، وللحمامات الساخنة في طبريا أثر سحري على آلامها.

أما هالة ومها فكانتا متشوقتين لمغادرة المنزل ورؤية وجه ربهما حسب تعبير هالة.

استغرقت الرحلة بضع ساعات، وحين وصلوا المدينة توجهوا مباشرة إلى الحمامات التي تقوم وسط حديقة صغيرة.

ساعد فؤاد والدته على النزول من السيارة وقادها مع أم رضا وشقيقتيه إلى عيون المياه البركانية، وتركهن ليستمتعن لبعض الوقت في الخارج قبل أن يدخلن إلى

جناح النساء في الحمام التركي بمياهه الكبريتية الساخنة.

بقي أحد السائقين ينتظر في إحدى العربات أمام الحديقة، بينما توجه فؤاد وبسام إلى المدينة بالعربة الأخرى، على أن يلتقي الجميع على ضفة البحيرة في ساعات بعد الظهر.

- شو أبو السوم ؟ وين بتحب تروح؟

- روح نتغدى سمك.

- لا يا زلمي، بنتغدى مع إمك وخواتك عالبحيرة، جايبين أكل بشبع بلد.

- ما بحب المعجنات بدي سمك.

- طيب، بنجيب سمك عالغدا ، بس لازم نتغدا معهم.

أوعز فؤاد إلى السائق بالتوجه إلى مقهى أمواج على

شاطئ البحيرة. جلس فواد وبسام إلى إحدى الطاولات على شرفة المقهى.

- شو أطلب لك؟

- عصير.

جاء النادل وأخذ الطلبات، وعاد بعد دقائق بكوب من عصير البرتقال، وزجاجة بيرة مثلجة مع كوب.

- وأنا ليش ما طلبت لي بيرة؟

- لسة بكير عالبيرة، بعدك طالب، لما تخلص الثانوية أنا عازمك على بيرة وسمك مشوي في بيروت.

ابتسم بسام: انتبه يعني هذا مش بعيد، الصيف الجاي.

- وعد يا ابو السوم، بس جيب نتيجة كويسة في الثانوية.

- من هاي الناحية ما تقلق.

أخذ فؤاد رشفة من كوبه، ثم نظر إلى بسام وابتسامة

خبيثة على شفتيه.

- كيف البنات معك ؟

ابتسم بسام بخفر: ما فيه شي.

- ليش؟

- حاطيني بمدرسة المنشية، كلها خناشير. يعني كان أبوي فقر لو حطني بمدرسة أجنبية مختلطة؟

ضحك فؤاد: معلش كلها سنة وبتروح الجامعة، أبوي بدو يبعثك على أميركا.

قطب بسام: ما بدي أروح على أميركا.

سأل فؤاد مستغربا: صحيح؟ ليش ؟

- بديش أروح بعيد، خذني عندك على بيروت.

- طيب بحكي مع الوالد، انتي بس اهتم تجيب نتيجة كويسة.

بعد أن انتهى اربعتهم من الاستحمام خرجوا إلى العربة التي كانت في الانتظار.

- نعيما يما.

قالت مها.

- ينعم عليكي يا حبيبتي. يعني حاسة كإني انخلقت من جديد. إجريي بطلو يوجعوني وحاسة بنشاط. الله يرضى عليه فؤاد.

سألت هالة: بس يما ليش ما بنيجي هون دايما؟ السيارات موجودة وانتي بتتعبي، الله يعطيكي العافية. لازمك ترتاحي وتنبسطي كل فترة.

- يا حبيبتي احنا فاضيين؟ والشغل اللي ورانا في البيت؟

- الله يلعن أبو الشغل، هو إحنا خدامين؟ ما بدنا نعيش وننبسط زي الناس؟

- لا يما تكفريش بالنعمة، ما إحنا مبسوطين.

لم تعلق مها، بينما لم يعجب رد الوالدة هالة فقطبت جبينها وأنهت الموضوع.

اجتمع الجميع في حديقة على شاطئ البحيرة.

- نعيما! كيف كان الحمام؟

سأل فؤاد.

- والله يما رجعني صبية، الله يرضى عليك.

- والصبايا؟ انبسطتو؟

سأل مبتسما.

- كيفنا.

أجابت مها.

- بس خسارة.

قالت هالة.

- ليش؟

سأل فؤاد.

- يعني ما بنيجي هون إلا من السنة للسنة. لو كل شهرين ثلاث مثلا.

- طيب بحكي مع الوالد.

- لا يما بلاش الله يرضى عليك.

تضرعت الوالدة بذعر.

صدم فؤاد: ليش يما؟ شو فيها؟

- بلاش، خللي أبوك برا الموضوع. البركة فيك.

أطرقت هالة رأسها والدموع تكاد تفر من عينيها، وشرد فؤاد للحظة ثم حاول تغيير الجو.

- يلا نتغدا، متنا من الجوع. جبنا سمك مشوي، إيش معنا في السلال؟

- معجنات من كل الأنواع وفواكه.

بسطت مها وهالة شرشف طاولة على الأرض، وبدأتا بتوضيب الأطباق، وعليها أصناف الطعام والسلطات، بمساعدة أم رضا. حاولت الوالدة أيضا أن تساعدهم إلا أن هالة احتجت:

- يما إنتي اليوم ارتاحي، مش مطلوب منك إشي. اليوم نقاهة إلك.

ابتسمت الوالدة، وبدأ الجميع يتذوقون الأصناف الكثيرة التي اكتظت بها المائدة أمامهم.

- يما أصب لك عصير برتقان؟

- صبي يا حبيبتي.

أخرج فؤاد زجاجة نبيذ أبيض وفتحها، ثم سكب لنفسه في كأس.

- يا حبيبي ضروري هذا؟

سألت الوالدة بتأنيب رقيق.

- يما بيضرش، بفتح الشهية.

- طيب صحتين إذا هيك.

- طب صب لي كاس يفتح شهيتي.

قالت هالة وغمزت بعينها.

صاحت الوالدة بذعر: - إوعي يا حبيبتي تتعودي عهالأشيا.

- ليش شو فيها؟

سألت هالة محتجة وأضافت: طيب تيريز بنت أبو الياس وسارة بنت الخواجة إسحق بيشربوا عنا في البيت.

- خليهم، همي حرين، إحنا بناتنا بشربوش.

وضعت مها سمكة في طبق وناولتها للوالدة: تفضلي يما.

- تسلمي يا روحي، أعطي إم رضا.

ناولت مها طبقا آخر عليه سمكة مشوية لأم رضا: تفضلي.

- الله يفضل عليكي.

بعد الغداء أخرج فؤاد مضربين من حقيبة رياضية،

وصرخ: مين يلعب معي؟

- ايش هذا؟

سألت مها.

- كرة مضرب.

- أنا بلعب.

تطوعت هالة.

- وأنا.

- وأنا.

- يلا بنلعب فريقين، بس معيش إلا مضربين، بنتناوب

عليهم.

قضى أربعتهم نصف ساعة يلعبون كرة المضرب، ثم خلع فؤاد وبسام ملابسهما ولبسا ملابس السباحة ودخلا إلى البحيرة، تبعتهما هالة بملابسها الكاملة، بعد أن شمرت فستانها، ولكنها لم تتعمق داخل البحيرة، أما مها فقد بقيت مع والدتها وأم رضا تحت شجرة كبيرة في الحديقة، التي اكتظت بالعائلات التي حضرت في رحلات من أنحاء البلاد المختلفة: عائلات يهودية ومسلمة ومسيحية، ملامحها متشابهة، ولا يميزها عن بعضها حتى أزياؤها، فالجميع يرتدون ملابس متشابهة، ويأكلون الطعام نفسه تقريبا، ويتحدثون اللغة نفسها. الفرق الوحيد الذي يمكن ملاحظته في الأزياء هو الفرق بين أزياء أبناء القرى وأبناء المدن، فسيدات القرى المجاورة يرتدين الأثواب الفلاحية المطرزة،

ورجالها يرتدون القنباز ويعتمرون الكوفية والعقال. أما سيدات ورجال المدن فيرتدون الأزياء الأوروبية، وبعض الرجال يضعون على رؤوسهم الطرابيش الحمراء، بينما رؤوس الكثيرين حاسرة.

الفرق الآخر الذي يمكن ملاحظته هو أن أبناء وبنات المدن فقط يدخلون إلى الماء بملابس السباحة، بينما يكتفي رجال ونساء القرى بالدخول بملابسهم أمتارا قليلة بعد أن يشمروهـــــا.

عادت هالة بعد قليل ومعها سارة ابنة الخواجة إسحق ترتدي زي الاستحمام (المايوه).

- مرحبا عمتو، كيفك مها، أم رضا؟

- أهلا يا حبيبتي، تفضلي.

سلمت على الجميع وقبلتهم.

- يسلمو إيديكي عالكبة، بابا جاب لي حصتي هذاك اليوم.

- صحتين وعافية.

قالت أم سليم مبتسمة.

سكبت هالة كوبا من عصير البرتقال لسارة.

- تفضلي، ولا بدك إشي تاني؟

سألتها ، وغمزت بعينها .

ضحكت سارة.

- إذا فيه ليش لأ.

- لما ييجي فؤاد، ما بعرف وين حط القنينة.

ابتسمت أم سليم وام رضا .

-تفضلي الغدا ، مها حطيلها معجنات.

- ياي، يسلمو إيديكي. طبعا ما بقدر أقاوم معجنات عمتو

إم سليم.

وبدأت تلتهم أقراص السمبوسك بشهية واضحة.

حضر فؤاد وبسام.

- أهلا سارة.

- أهلا فيكم، كنتو في المي؟ ما شفتكم.

- صب لها كاس.

خاطبت هالة شقيقها.

سكب فؤاد كأس نبيذ لسارة وكأسا له، وبدآ يرتشفانه.

- منين هدا؟

- من البقاع.

- طبعا، مبين، ما فيه إشي طيب هيك هون.

قبل مغيب الشمس بدأت العائلة تحزم أغراضها وتضعها

في صناديق السيارات، ثم ركبوا، ومعهم سارة التي كانت

قد حضرت إلى طبريا بالمواصلات العامة، وتوجهوا إلى يافا.

بهية تبوح للبحر

شو يا بحر؟ ما بعرف شو أقول لك، حكي فاضي، لا هو بحار ولا شريد البراري، وما بعرف شو بده مني ولا شو بدي منه. شفتو مرتين، وفي المرتين هو كان السيد وأنا الخدامة، مرة جاب أصحابه يتفرجوا على حياتنا، على بؤسنا، ومرة جابهم يخيلو على جن، اللي أنا بخدم عليه. يعني شو بده يكون شاف فيي غير بنت الناطور اللي هي وكل عيلتها في خدمة عيلته؟بس ليش كان مرتبك وهو يحكي معي؟ وشو هالنظرات الغريبة؟ يمكن بديت أتوهم أشياء، أكيد هاي أوهام، شو جاب لجاب؟ حياتنا فيها حدود، مش زيك يا بحر، عالمك بدون حدود، وبدون قوانين جائرة، أمواجك بتلعب مع الزوابع، بتكبر وبتصغر، بتثور وبتهدي، بتطلع وبتنزل، وبعدين في الآخر بترجع

لأحضانك، زرقا، ساكنة، والعواصف بتروح على بحار ثانية، وإنت باقي هون. إحنا الزوابع بتقلع شجرنا، بتغرق بيوتنا، وبتخربط حياتنا. أنا أهلي ما بحبو الزوابع، ناس بدهم الستر، ورضى البيك. أنا كيف طلعت هيك يا بحر، مثلك ؟ ما بعرف ! الله يعين أبوي وإمي، الله يعينهم.

بوح مكابر

سأعود بعد غد لبيروت، سبقني جيم وروبرت صباح اليوم. أردت أن أبقى يومين إضافيين مع عائلتي، دون أن أكون مرتبطا بأعباء استضافة صديقي. والدتي سعيدة بوجودي، سأقضي معظم وقتي معها خلال هذين اليومين. ليس في حياتها الكثير من مصادر السعادة، أولادها وبناتها يكادون يكونون مصدر سعادتها الوحيد. أثر رحلتنا إلى طبريا على نفسيتها كان كالمعجزة، جعلت مزاجها مشرقا طوال الوقت، والابتسامة لا تفارق شفتيها. آه يا أمي ما أبسط متطلباتك، وآه يا أبي كم أنت ظالم ! أما أختاي هالة ومها فظلمهما جاء عالبيعة، ليس لهما حياة خاصة بهما، هما ملحقتان ببؤس الوالدة، ولا تملكان التحرر من هذا المصير. وأنا لا أملك مساعدة اي منهم،

أتألم من بعيد بينما أحاول أن أكسر الطوق وأنجو بحياتي. بسام سينجو أيضا، فبعد سنة سيكون في عالم آخر. غريب أن والدي يصادق عائلات يعيش أفرادها حياة بلا قيود، ولا يحاول تقليدهم. كيف ينسجم مع أبو الياس وإسحق وهما بعقليتين مختلفتين تماما؟ تيريز تعيش حياة منفتحة كبنات بيروت، وسارة كذلك، تذهبان إلى السينما والحفلات، وتتنقلان بين المدن لوحدهما. تيريز أرسلها أبوها للدراسة في الولايات المتحدة. هل لأنهما من عائلتين غير مسلمتين؟ لا أظن أن هذا هو السبب، فأنا أعرف عائلات يافاوية مسلمة تعيش نمط حياة لا يختلف أبدا عن نمط حياة عائلة أبو إلياس وإسحق. والدي جلب معه نمط حياة قرى منطقة طولكرم، ولا يريد أن يتكيف مع الحياة في يافا، رغم أننا نعيش هنا منذ عشرين سنة. لاحظ كل

هذا صديقاي الأمريكيان، رغم أنهما لم يقيما معنا أكثر من بضعة أيام، وأكثر ما صدمهما هو البون الشاسع بين حياة عائلتي وعائلة أبو الياس من جهة، وحياة الفلاحين من جهة أخرى. كان في صدمتهما شيء من المبالغة، فلا أظن الفلاحين في الولايات المتحدة يعيشون كمثل حياة الأثرياء في بلادهم، هذا عبث، لكن مظاهر البؤس في بيت أبو إبراهيم الناطور، شيء يجعلني أحس بالإحراج أمام نفسي لا أمام أصدقائي. لكن ما هذا الشعور الذي ينتابني كلما ذكرت أو ذكرت أمامي عائلة ابو إبراهيم؟ شعور عصي على الوصف... مزيج من الفضول وحب الاستطلاع، والرغبة بالاقتراب من حياة هذه العائلة. أهذا كل ما هنالك ؟ لا تكابر !!!طيب فيه لمسة حنين واهية.. حنين ؟ لا، شيء من الشعور بالذنب.. الذنب ؟ طيب،

شـيء من الشـعور !!! ارتـحت ؟

يحدث في الميناء

بدأ موسم البرتقال، وبيارة البيك في أطراف يافا تحولت إلى ورشة لا تهدأ. مع أول تباشير الفجر يبدأ عمال القطف بالوصول من القرى المجاورة، يستلم كل واحد منهم صفا من أشجار البرتقال أو اليوسفي، يقطفون الثمار بحركات مدربة، سريعة لكن حريصة، يستخدمون المقصات حتى لا يتسببوا بأي خدش للثمرة أو للشجرة، وكذلك من أجل أن يحتفظوا بجزء من العنق وعليه ورقة واحدة على الأقل.

تصدح أغاني العمل الخاصة بالموسم:

برتقانك يا يافا.

أطيب من الكنافا.

جسمي منه بتعافا.

لانه صحة للأبدان.

حين تمتلئ المقاطف والسلال الكبيرة تنقل تباعا إلى الورشة، حيث يجري تصنيف الثمار وتغليفها ورصها في صناديق حشبية، ثم تأتي الشاحنات وتنقلها إلى الميناء.

بدأت الحياة تعود للميناء بعد كساد دام لعدة سنوات منذ بداية الحرب العالمية، وعادت مكاتب شركة أبو إلياس تعج بالموظفين، وضجيج الآلات الكاتبة ورنين التيلفون المتواصل يجلب السعادة إلى قلب أبو الياس، الذي عاش حالة من الاكتئاب في سنوات الركود.

في هذا الموسم الممتد على مدى ثلاثة شهور تنتعش عائلة ابو إبراهيم، فيلتحق الجميع بالعمل: الوالدة وهنية بأعمال القطف في البيارة، وإبراهيم يساعد والده بالإشراف على نقل السلال والمقاطف إلى ورشة التصنيف، والتأكد من

انطلاق الشاحنات إلى الميناء في الوقت المحدد·، طبعا بعد انتهاء دوامه المدرسي·

أما بهية فتلتحق بمكاتب شركة أبو إلياس، بعد أن طلب أبو إبراهيم من البيك أن يحدث صديقه بالأمر، خاصة وأنها تجيد الطباعة على الآلة الكاتبة·

خلال الموسم تخلو قهوة التيوس من روادها، فلا يبقى في المدينة عاطل عن العمل سوى أبو العبد وصبيانه في المقهى، الذي يرتاده العاطلون في بقية ايام السنة·

في هذه الشهور الممتدة من تشرين الثاني حتى نهاية شباط يعم الرخاء بيوت العائلات في قرى يافا أيضا، وتنتعش الحوانيت في سكنة درويش وبيت دجن وسلمة وجريشة، وتعمر الرفوف بالبضائع التي لا تكاد تصل من يافا حتى تنفد، خاصة مواد التموين كالرز والسكر

والشاي. وفي منزل البيك في المنشية تضاعف أم سليم نشاطها لإعداد الولائم لضيوف زوجها، الذين يزيد عددهم في هده الفترة، حيث لا يقتصرون على الأصدقاء من يافا ومحيطها، بل يستضيف أبو سليم تجارا من الشمال والجنوب، ناهيك عن وكلاء أعماله في منطقة طولكرم، بعضهم يبيت لليلة أو ليلتين في منزل البيك.

زوار المدينة في هذه الشهور يحسون بأجواء فرح غير عادية، وكأن حياة الناس عيد متصل، فالرفاه يطال معظم العائلات، حيث لا تعدم عائلة صلة ما بخيرات الموسم، سواء عبر العمل في البيارات أو ورشات التصنيف أو مكاتب التصدير أو الميناء الذي يستخدم عددا إضافيا من العمال خلال الموسم، كذلك ينتعش أصحاب القوارب التي تنقل الصناديق إلى السفن التي تضطر للرسو بعيدا

بسبب ضحالة المياه.

وفي نهاية الموسم يعمل العشرات في تنظيف الميناء، مستخدمين الجرافات.

هذه السنة شهد الميناء نشاطا غير عادي، واستخدم أعدادا إضافية من العمال، وكان واضحا أن السفن التي تغادر ممتلئة بصناديق البرتقال واليوسفي لا تعود فارغة.

لفت انتباه ابو نواف أن بعض السفن ترسو أبعد بكثير مما يتطلبه عمق المياه، وأنها تبقى تنتظر حتى يحل الظلام، فتتوجه إليها مراكب خاصة لتنقل حمولتها بهدوء إلى الميناء.

في نهاية يوم العمل توجه أبو نواف إلى سكنة درويش والتقى أبو الفوز وأبلغه بالملاحظة.

حين عاد إلى يافا اتصل ببعض أصدقائه العاملين بالميناء،

وطلب منهم أن يبقوا عيونهم مفتوحة.

حجنا طاح البحر

وقفت عربة الحنطور أمام منزل أبو إبراهيم وصعد إليها أفراد العائلة. الوجهة: بيت دجن، فالعم أبو طارق وزوجته عقدا النية على السفر لبلاد الحجاز، والعائلة ذاهبة لوداعهما.

- الله يطعمنا اياها يارب.

تضرعت أم إبراهيم.

- الله يسمع منك يا أم ابراهيم، ما على الله شيء كثير.

- الله يرجعهم بالسلامة.

قالت هنية.

- اللهم آمين.

في منزل أبو طارق اجتمعت النسوة في الصالة والرجال في الديوان. حين وصلت أم إبراهيم وابنتها كانت

الأغاني الخاصة بوداع الحجاج في أوجها. يطلقون على تلك الأغاني اسم التحنين، يحننون للذاهبين إلى الحج، يدعون الله أن يعيدهم سالمين من رحلة شاقة وطويلة.

ارتفع صوت أم إبراهيم منشدة:

حجنا طاح البحر وبإيدو كيلة

يا رب ترده سالم لها العيلة

ردت عليها إحدى نساء العائلة:

حجنا طاح البحر في إيدو شربة

يا رب ترده سالم من هالغربة

وبدأت الدموع تسيل على وجنات النساء، وصوت الغناء يتحول تدريجيا إلى ما يشبه النواح:

- الله يردكم سالمين.

- ادعولنا على جبل عرفات

صوت أم إبراهيم الحاد ينطلق مرة أخرى:

صفي موارد، يا طريق الحجاج، صفي موارد

تيحج ويعاود، ظللي عابو طارق، تيحج ويعاود

صفي شجر ورد، يا طريق الحجاج، صفي شجر ورد

من الحر والبرد، ظللي عابو طارق، من الحر والبرد

وتجيبها أم توفيق:

يا جلد الحية يا صرماية هالحاج يا جلد الحية

روحة وجية، على الله السلامة، روحة وجية

يا جلد الضبعة يا صرماية هالحاج يا جلد الضبعة

روحة ورجعة، على الله السلامة، روحة ورجعة

وانطلقت الزغاريد، فتحول الجو تدريجيا من الحزن إلى الفرح.

أما الديوان فقد اكتظ بالرجال الذين حضروا من سكنة

درويش وسلمة وجريشة وباقا للوداع.

- سامحونا ياجماعة الخير.

صرخ أبو طارق بصوت تخنقه الدموع.

فرد أكثر من صوت: مسامحينكم سماح دنيا وآخرة. الله يرجعكم بالسلامة.

قبل أذان الظهرخرج الرجال والنساء إلى ساحة الجرن، حيث نصبت الرايات، وكان شيوخ القرية وبعض القرى المجاورة يدقون العدة ثم بدأوا بزف الحجاج، حتى وصلت السيارة التي ستقل أبو طارق و أم طارق إلى حيفا، ومنها سيستقلان الباخرة.

حين سمع صوت بوق السيارة ارتفعت وتيرة الأغاني والأناشيد وبلغ الانفعال ذروته.

بكى أبو إبراهيم وهو يعانق شقيقه، ثم صافح أم طارق.

- ترجعولنا بالسلامة يا مرة أخوي.

- الله يسلمك.

ردت أم طارق بصوت تخنقه الدموع:

وانطلق أكثر من صوت: السلام أمانة، سلمولنا عالحبيب، وادعولنا على جبل عرفات.

نزل سائق السيارة وتناول حقيبتي السفر، ووضعهما في الصندوق.

أخذ أبو طارق مكانه إلى جانب السائق، ونادى زوجته التي تأخرت لتعانق طارق وزوجته وبناتها.

- يلا يا أم طارق.

جلست أم طارق في المقعد الخلفي، أطلق السائق بوق سيارته وانطلق، والمشيعون يلوحون بأيديهم، ودموع الكثيرين تتدحرج على وجناتهم.

في ساحة الجرن ستتنصب الرايات مرة أخرى، وسيجتمع أهل القرية للاحتفاء بالعائدين، ولكن بأجواء فرحة لا تشوبها الدموع.

مفاجأة في عيد الميلاد

سأفاجئ العائلة بزيارة غير متوقعة. لم أعتد أن أسافر في عطلة أعياد الميلاد، ولكني هذه المرة حرصت على حجز تذكرة إلى يافا منذ أكثر من أسبوعين.

ستفرح الوالدة بهذه المفاجأة، وكذلك هالة ومها. اشتقت للبيارة بشكل غير عادي، أريد أن اقطف البرتقال بيدي وأشم رائحته. صحيح أن الوالد يرسل لي شحنة كل أسبوعين، لكن للبرتقال على الشجر عبق مختلف. أن تقطفه بيديك، وتقشره وهو ما زال طازجا، دون حاجة إلى سكين، تنفصل القشرة عن الثمرة بمنتهى السهولة، وتفوح رائحته التي تسكرني، أي والله، تسكرني. يضحك شقيقي سليم وهو يراقبني أتلذذ بتقشير ثمار البرتقال، وأشمه، القشرة، ثم الثمرة، قبل أن ألتهمها. يسخر مني.

سأزور برفقة والدي بيت أبو إلياس لتهنئة العائلة بأعياد الميلاد. لا أظن أن تيريزا ستكون موجودة، فالإجازة أقصر من أن تستحق رحلة من الولايات المتحدة. خسارة، فأنا أحب لقاءها والدردشة معها، ونذهب أحيانا إلى السينما معا.

لا بد أن أزور أبو إبراهيم في منزله، فلم أره في إجازتي السابقة، وسأشرب الشاي عندهم، وأتحدث معه ومع إبراهيم، وسترى ابنته أنني لا أتردد على منزلهم حتى أتفرج على حياتهم البائسة، كما تعتقد. ولكن ما بالي أعيرها كل هذا الاهتمام؟ لا أحب أن أعطي انطباعا خاطئا عن نفسي، فأنا أحب تلك العائلة المكافحة، لا أعطف عليها بل أحبها واحترمها. عائلة فقيرة، ومع ذلك تعلم أبناءها وبناتها، إبراهيم وتلك الفتاة وصلا المرحلة

الثانوية، بعكس عائلتنا التي لا تبقي البنات في المدارس بعد المرحلة المتوسطة. مها كانت متفوقة، وبكت أمام الوالد، رجته أن يسمح لها بإتمام دراستها الثانوية، ورفض بصلف. وهالة وصلت الثانوية بالزور، ولكن الوالد رفض إرسالها إلى الجامعة.

أما بهية، بنت أبو إبراهيم، الناطور الفقير، فستحصل على الشهادة الثانوية. ويمكن ملاحظة أثر ذلك على شخصيتها: هي جريئة وواثقة من نفسها و... و.... جميلة !! لا علاقة لهذا بدراستها، ولكنه شدني ! هل سأراها يا ترى ؟ولماذا أريد أن أراها؟ لم تكن ودية في تعاملها معي بالمرة! مع ذلك أسرني لسانها الحاد بدل أن ينفرني... لم أرها سوى مرتين، إحداها لم تدم أكثر من دقائق في إسطبل الخيول، لكن أثرها بقي يلازمني حتى الآن.

لن أقول إن قراري بالسفر إلى يافا في عطلة أعياد الميلاد له علاقة بتلك الفتاة الغامضة، ولكني لا أستطيع أن أنفي ذلك تماما، فلزيارتي هذه المرة مذاق مختلف.

زيارة في العيد

في كل مرة أزور فيها منزل أبو إلياس أحس بالغيرة. هو صديق والدي وشريكه التجاري، ولكنه يعيش في عالم مختلف تماما. منزل عائلتي باذخ ولكن بدون ذوق. حين أدخل بيت أبو الياس أحس أنني في منزل ثري أوروبي. الأناقة تميز كل محتويات الغرف، حتى طلاء جدرانها. الاضاءة هادئة، الألوان تعكس ذوقا رفيعا، قطع الأثاث متناسقة ومنتقاة وفقا لمفهوم واضح.

استقبلتنا العائلة في غرفة الجلوس التي فرشت بالسجاد العجمي. في إحدى الزوايا انتصبت شجرة عيد الميلاد المضاءة والمزينة بأشكال متنوعة، بعضها من الورق، وبعضها الآخر من الخشب، يختص بإعدادها حرفيون في المدينة، ويجيء بعضها من القدس وبيت لحم.

بعض علب الهدايا ما زالت تنتظر أصحابها تحت الشجرة.

- عيد مجيد أبو إلياس، أم الياس، ينعاد عليكم انشالله.

- وأنتو سالمين وبالصحة والسعادة.

قدم والدي هدية مغلفة بورق بني لأبو الياس لم أخمن محتواها، وأخرى مغلفة بالقطيفة الحمراء لأم الياس، علمت من والدتي أن فيها طقما من الملاعق والشوك والسكاكين المطلية بالفضة.

- تسلمو ويدوم عزك يا بو سليم.

قالت أم الياس بامتنان.

- سلامة خيركم.

خرجت من الصالة وعادت بأربع كؤوس وضعتها على الطاولة، ثم خرجت مرة ثانية وعادت بزجاجة نبيذ.

فتح أبو الياس الزجاجة وسكب النبيذ.

رفع الوالد كأسه وكذلك أبو الياس وأم الياس وأنا:

-بصحتكم.

- تيريز ما بتيجي عالعيد؟

سألت، وأنا أعرف الإجابة.

- يا ريت. أميركا بعيدة، يا ريتها بتدرس زيك في بيروت، كنا بنشوفها أكثر.

علق الوالد: انا ابني الثاني بسام بدي أبعثه على أميركا السنة الجاية.

- على خير.

قال أبو إلياس.

خرجت أم الياس مرة أخرى وعادت بطبق كبير من الكريستال، عليه ألوان متعددة من الفواكه. تناولت من خزانة في الغرفة بعض الأطباق والشوك والسكاكين.

- تفضلوا، سلامة خيركم.

وضعت في كل طبق تفاحة وقرن موز وبرتقالة، ووضعتها أمامنا.

- شو هالأخبار اللي بنسمعها.

سأل أبو الياس.

- خير؟

- الإنجليز ما عادوا يمانعوا بهجرة اليهود، بالعكس، بيقولو صاروا يشجعوهم.

- أوروبا بدها تخلص منهم هيي سبب بلاويهم.

قال الوالد.

- يعني إحنا أولى منهم؟ اللي عنا منا وفينا، بس هذول الأوروبيين ليش بيجو؟

- انا عارف؟ البلد صارت غير شكل، الناس تغيروا. حتى

إسحق ما عدنا نشوفه من الشهر للشهر.

- اسحق مشغول هالأيام.

قال أبو إلياس.

- دايما مشغول، سفنه رايحة جاي على أوروبا بتنقل النا ولغيرنا.

- لا هالايام مشغول أكثر.

- شو قصدك ؟ بإيش؟

- ما بعرف بس حاسس بإشي غير طبيعي.

أحضرت أم إلياس القهوة.

- سيبونا من هالحكي. الدنيا عيد، خلينا مبسوطين.

تفضلوا.

تأملت اللوحات الزيتية على الجدران وأنا أرتشف قهوتي.

ليس في منزلنا لوحة واحدة.

بعد أن انتهينا من قهوتنا وقف الوالد.

- بدري، ما احنا قاعدين.

- لا يمل. كل عام وانتو بخير.

- وانتو بألف خير، شكرا عالهدايا.

- سلامة خيركم.

كبة باللبن 1

لقهوة الصباح هذا اليوم مذاق مختلف، تحس بالمتعة مع كل رشفة، وقلبها تسكنه طمأنينة غريبة، هي المسكونة بالقلق والخوف من المجهول.

لا تستطيع أن تتنبأ من أين تهجم العواصف، فلهذا البيت أبواب كثيرة لا يسعها أن تغلقها جميعاً.

تخدم الزوج وضيوفه، تتحمل كل نزواته، ولا تسمح لدموعها أن تفضح انكسار قلبها، تتماسك دائما طالما رآها أهل بيتها، وحين تدخل غرفتها تطلقها أخيرا، فتبلل وجنتها ومن ثم وسادتها. الله يسامحك يا أبي، لم تكن تجهل ما ينتظرني، فحياة البيك كما يسمونه في الشعراوية كتاب يعرف فصوله الجميع. تزوج قبلي ثلاثا، لم تعمر أي منها في معيته أكثر من سنتين. أخراها كانت لبنانية تركته

وفرت ولم يمض على زواجهما شهر واحد. من يحتمل هذه الحياة غيري؟ لا خيار أمامي، فوالدي ربطني بحبال لا سبيل إلى قطعها. كان زواجي تسوية لخلاف على أملاك بين العائلتين. كان والدي يستأجر قطعة أرض من والد أبو سليم (البيك الكبير)، ويزرعها قمحا وشعيرا، وتعتاش منها العائلة، وحين توفي جاء البيك الصغير ليفض العقد. شبح الجوع القادم سلب والدي النوم ليالي طويلة. كثف البيك زياراته للضغط على والدي، لم تنفع الوساطات ولا الشفاعات التي قام بها وجهاء المنطقة. وفي أحد الأيام جاء لينهي الموضوع. في ذلك اليوم لمحني. سأل عني والدي الذي لم يصدق أن القدر فتح له كوة أمل. تم الاتفاق في لحظات. بقي والدي في الأرض، لم يعد الجوع يتهدد أمي وتسعة من الأولاد والبنات، وأنا أصبحت زوجة البيك

- يسلموا إيديكي عهالقهوة، يعني وين ما رحت ما شربت مثلها.

ابتسمت الأم لتحية فؤاد، منذ وصوله والابتسامة لا تفارق شفتيها. هو أكثر أبنائها إحساسا بكربها، وأكثرهم حنوا عليها.

- صحتين يا حبيبي، شو أطبخ لك اليوم؟

- كل شي من إيدك بيفتح النفس.

- بس قول لي يما، نفسك في إشي؟

- كبة بلبن ؟

- حاضر. قول لرضا يجيب لنا لحمة عجل، ولبن من دار أبو إبراهيم.

تلقف فؤاد الفرصة التي جاءته على غير انتظار.

-أأنا بجيب لبن يما، ومنها بسلم على أبو إبراهيم. يلا

خليني أروح، ساعة زمان ويكون رجعت.

- مش ضروري تستعجل، بعد الفطور بتروح.

- لا مش جوعان، خليني أروح أجيب اللبن وأرجع بسرعة، خلينا نتغدا بدري اليوم.

أخذ الرشفة الأخيرة من فنجانه وغادر البيت.

عجيب أمري. ماذا أريد من هذه الفتاة المسكينة ؟ أم ترى المسكين أنا ؟ أيا كان الأمر فحري بي أن أضع له حدا، هذا هو العبث بعينه. ولكن من يعبث بمن؟ هل أعبث بنفسي أم بها أم أن القدر يعبث بكلينا؟

يخترق البيارة بخطى حثيثة، يحيي العمال الذين انتشروا في أرجائها يقطفون الثمار البرتقالية. يلمح أبو إبراهيم فيهرع للسلام عليه.

- الحمد لله على السلامة.

- الله يسلمك، أنا رايح عندكم اجيب لبن.

- ولو، ليش مغلب حالك؟ قديش لازمكم؟ بنبعثهم مع إبراهيم.

- لا معلش، أنا بروح أجيبهم، ومنها بتمشى شوي.

- يا ريتني فاضي أرافقك، هيك تشرف بيتي وانا مش موجود؟

خاف أن تفلت منه الفرصة فعاجله: لا أبدا يا أبو إبراهيم، بيتك بيتي، إنتي خليك بأشغالك وانا بروح وبرجع بنص ساعة.

ما إن أعتقه أبو إبراهيم حتى حث الخطى.

اقترب من البيت الصغير في نهاية البيارة فبدأت دقات قلبه تسابق دقات مضخة البئر الارتوازي في الناحية الأخرى.طرق الباب بتهيب.

حين فتحته ورأت الوجه الذي طالعها من ورائه شهقت.

قال متلعثما: صباح الخير.

لم ترد، بل ركضت إلى الداخل كالمذعورة، أما هو فتسمر في مكانه والارتباك يسيطر عليه.

جاءت أم إبراهيم: أهلا وسهلا.

- صباح الخير يا ام ابراهيم، إمي بدها لبن.

- يا عيب الشوم، مغلب حالك وجاي، كنا بعثناهن مع إبراهيم.

- لا بسيطة.

نادت أم ابراهيم ابنتها:

- بهية.

جاء صوتها مخنوقا.

- نعم يما.

- حطي مغاطيس اللبن بسلة وجيبيهن.

- حاضر يما.

يأتي صوتها من عالم آخر، يسمعها ولا يراها، قلبه يرتجف كطائر جريح، تنتقل الرجفة إلى يديه، تأتي بالسلة وفيها اللبن، يمد يده لتناولها فيرتجف أكثر، تمد يدها لتناوله فترتجف أكثر، يمسكان بالسلة كل من طرفه بيدين مرتجفتين فتسقط على الأرض، تفر من أمامه، أما هو فيلتقط السلة بارتباك تلاحظه أم إبراهيم، ويهرب إلى حيرته.

كبة باللبن 2

أم سليم في أوج نشاطها، الكبة باللبن هي الأكلة المفضلة للكثيرين، ومنهم ضيوف البيك، الذين يطلبونها دائما في الولائم. أفراد العائلة أيضا يحبونها، خاصة فؤاد. أم سليم تعلمت تحضير الكبة من والدتها، وتلك نقلتها بدورها عن والدتها. لهذا الطبق تقليد عريق في العائلة ولتحضيره شعائر خاصة تتوزع فيها الأدوار.

أحضر رضا 3 كيلغرامات من لحم العجل وسلمها لوالدته التي غسلتها وأعدت الجرن، وهو حجر منحوت تدق فيه لحمة الكبة بمدق خاص حتى تصبح ناعمة ومتماسكة كالعجينة.

سعيدة ابنة أم رضا تكفلت بتنقية الرز وغسله، وأم رضا اضطلعت بمهمة دق اللحمة. أما أم سليم فهي مختصة

بالمهمة الأصعب، عقد اللبن أي خلط اللبن الرائب بالماء والملح وتحريكه بقوة حتى يختلط اللبن بالماء ويتشكل منه محلول متجانس.

بعد أن انتهت سعيدة من تنقية الرز غسلته وسلمته لمها التي دقته على جرن الكبة حتى أصبح ناعما.

أما هالة فتكفلت بتحضير الحشوة المكونة من اللحم والبصل والصنوبر.

الكل يعمل تحت إشراف أم سليم، وهي تضع اللمسات الأخيرة على عمل الجميع، تستلم منهم ما أنجزوه وتتكفل بإنجاز المرحلة النهائية: التكبيب ومن ثم الطبخ.

حين انتهوا من إعداد الوجبة، أرسلوا لأبو سليم وسليم نصيبهما في الدار الجديدة، وأعدوا المائدة في غرفة الطعام في الدار القديمة.

اجتمع أفراد العائلة حول الطاولة، تلفتت الوالدة ولم تجد أثرا لفؤاد.

- روحي نادي أخوكي يا هالة، يا حبيبي هو اللي طلب الكبة.

طرقت هالة بابه، وما من مجيب.

- فؤاد.

لم تتلق ردا.

بدأت تحس بالقلق، فتحت الباب بلطف. فؤاد مستلق على سريره وعيونه شاخصة إلى السقف، ارتعبت هالة:

- فؤاااااد، مالك ياخوي؟

- أبدا ما فيه شي.

- تعال تغدا، الغدا جاهز والجميع بستنو فيك.

- بعدين، اتغدوا انتو، أنا بوكل بعدين.

- ول ياخوي، إنتي اللي طلبت الكبة، أمي بتنجن هسة.

- قوليلها مش جعان، ما تعملو منها قصة.

عادت هالة إلى والدتها والقلق يعتمل في داخلها.

- وين أخوكي ؟

- مش جعان، قال اتغدوا وهو بيوكل بعدين.

ضربت الأم على صدرها: مش جعان ؟ وااال الدنيا

صارت العصر وهو اللي طلب الكبة.

هبت واقفة وتوجهت إلى غرفة ابنها. حين فتحت الباب

ورأت حاله شهقت: -مالك يما. مالك يا حبيبي؟

حاول أن يتدبر ابتسامة: ولا شي يما، مالكم مفزوعين؟

بس مش جعان.

- يما كيف مش جعان؟ ما افطرت والدنيا صارت العصر،

إنتي مريض؟اقتربت منه وتحسست جبينه.

- لا يما، والله ما فيه اشـي· اتـغدوا انتو·

- يما يا حبيبـي شـو جرى لك؟ ننـادي الدكتور وليد؟

- لا لا ما بدها دكتور، والله ما فيه اشـي·

جلست على حافة السرير ووضعت يدها على خدها·

- يما روحـي تغدي·

- كيف بدي أتغدى وانتـي بهالحالة؟

- والله ما فيه حالة، طيب يلا أنا جاي معك·

نهض وأمسك بيد والدته، وتوجها إلى غرفة الطعام·

انضم إلى بقية أفراد العائلة، اعدت له الوالدة طبقا من الرز واللبن المعقود، ووضعت فوقها أربعة أقراص من الكبة·

حاول إيهام العائلة بأنه يأكل بشهية، لكنه كان يبتلع الطعام دون أن يحس له بأي طعم· كانت هالة ترمقه بحزن بين الفترة والأخرى، ولم يخف حاله على الوالدة، أما هو

فلم يكن يحس بما حوله. كان يستعجل الانتهاء من شعائر وحركات لا معنى لها حتى يخلو إلى نفسه في غرفته.

مناقيش

أم إبراهيم استيقظت مبكرا وأشعلت الحطب في التنور استعدادا للخبيز. هنية ملأت الجرة من الماتور كعادتها كل صباح، وأبو إبراهيم عاد من صلاة الفجر من مسجد حسن بك منذ فترة. إبراهيم يتمطى في فراشه استعدادا للنهوض. الشمس تتسلل من الشرق بثقة، برغم زمهرير الشتاء. أما هي فتصارع رغبة في البكاء. لم تغادر فراشها، مستلقية بدون حراك تحدق في اللاشيء.

- بهية، اليوم الفطور مناقيش، يلا جيبي الزيت والزعتر وتعالي، إمي جهزت الفرن.

جاء صوت هنية يتطفل على وحدتها.

- ضروري؟

- أي نعم ضروري. خدامين جنابك من الصبح بشتغلو،

وحضرتك ما شبعتيش نوم؟ اليوم الجمعة وأبوي مش رايح يسرح، بدو يفطر معنا.

تمطت في فراشها، ثم نهضت بدون رغبة. غسلت وجهها وتوجهت إلى حيث التنور في نهاية المطبخ.

- صباح الخير يما.

- مية صباح يا حبيبتي، يلا جيبي الزيت و الزعتر، العجين مقطع من زمان وبستنى فيكي.

دخلت المطبخ بحركات غير واعية، وضعت كمية من الزعتر في طبق وغرفت الزيت من الجرة في طبق آخر، وعادت إلى حيث تقرفص أمها أمام التنور، وناولتها الطبقين، وأرادت أن تنسل عائدة إلى المنزل.

- وين رايحة يما؟ بدكيش تحضري المناقيش؟

- إعفيني يما اليوم، دخيلك.

- ليش خير؟ مريضة؟

سألت الأم بقلق.

- هيك حاسة.

- سخنة ؟

- ما أظنش، بس حاسة بحالي مهدودة.

- طيب روحي اتريحي، خللي أختك تعمل لك كباية بابونج.

بابونج؟ وهل تجدي الأعشاب في علاج قلب كسير؟ يا ربي لماذا غرست بي أحلام النوارس ولم تمنحني أجنحتها؟ أنا أجيد العوم لكني لا أحسن التحليق، حدودي القصوى بضع مئات من الأمتار، تبقيني أسيرة الشاطئ، لا تبعدني عن مدينتي ولا تحررني من أسيجتها.

قدري أقوى من أحلامي النزقة، وواقعي يشدني من شعري ليعيدني إلى أصفادي. يا ربي ما حكمتك في هذا

؟ لماذا غرست تلك الجرثومة في كياني؟

- خذي يا كسلانة، هاي البابونج، قال مريضة قال ·

ناولتها هنية كوب البابونج الساخن، أحست بدفء ملمسه، وبدأت ترتشفه ببطء وهي تدرك أن حرارته لن تصل إلى صقيع أعماقها·

صبت مزيدا من اللعنات على حياتها، وحاولت أن تستجمع بعض الطاقة وشيئًا من الحماسة، وعادت إلى حيث أمها وشقيقتها، تقرفصان أمام التنور·

استقبلتها رائحة الزعتر وزيت الزيتون، وقد بدأت أقراص المناقيش تنضج، وألسنة اللهب تشع الدفئ في محيط التنور·

البحر لا يستمع

الدنيا مطر كب من الرب والبحر هائج، أمواجه تعارك الشاطئ، وصفير الريح لا يخيفني، بالعكس، يصلني كأنين جريح، ويؤنسني، يجعلني أحس أنني لست وحيدة.. هذا اليوم سأصادق الريح والزوابع، فصديقي البحر لا وقت لديه ليؤنس وحشتي. هو يخوض معركته الخاصة مع قوى الطبيعة، وعلي أنا أن أخوض معركتي وحيدة. هدي يا بحر، لو تسكن قليلا وتسمعني، نحن في منتصف الشتاء بعد، ولديك متسع لمقارعة العواصف. لا تشح عني في أيام كهذي. الريح تصفر بصدى أحزاني، ولكنها لا تحسن الاستماع، أنت الوحيد الذي يحسن الاستماع، الآخرون يتحدثون فقط. لا تتركني هكذا، حائرة، كسيرة الجناح، أو لتأخذني أمواجك الهائجة

بعيدا. أهون علي أن أركبها وأتعايش مع هيجانها من أن أجد لي مكانا آمنا في هذا الوسط القاسي. قوانين الطبيعة بقسوتها أهون من قوانين البشر، وقابلة للفهم أكثر. لا أفهم حياتي التعيسة، لماذا خلقت بوعي يرفض واقعي؟ وماذا بيدي لأفعله؟ المرارة لا تفعل سوى أن تؤزمني، والفجوة بيني وبين حياتي تتسع يوما عن يوم. وهو، ماذا يريد؟ لو يقول كلمة واحدة، هو من يملك أن يقول شيئا، أنا لا أملك حق الكلام! أنا بنت الناطور، هل نسيت؟ قد أصلح حبيبة الأمير في حكاية رومانسية، لكني لن أصلح لدور الأميرة. قد يقع الأمير في حبي، فهذا شأنه وحده، وما أنا سوى أداة درامية لاكتمال حكايته. هكذا بنات النواطير في الحكايات الرومانسية، لسن مركز الحكاية بل أحد تفاصيلها.

يا بحر هدي شوي، اسمعني، لا تنشغل عني هكذا ! ماذا أعمل إن كان القدر ينسج حكايتي في الشتاء؟ ستهدأ في الربيع، وسترغب بالاستماع، ولكن هل سيكون لدي عندها ما أقوله؟

أخ يا بحر، ثيابي ابتلت من المطر، وأنا أرتجف من البرد ومن غربة روحي. بودي لو أدفن نفسي بين أمواجك وأستريح، أن تجرفني إلى مصير آخر، حياة أخرى، لكني لن أستطيع، علي أن أسرع بالعودة، والدتي تنتظرني، عائلة البيك طلبت صواني بالتنور وعلي أن أعدها. علي أن أكون في الخدمة مع بقية أفراد العائلة، نحن في خدمة البيك وعائلة البيك هل يا ترى سيأتي بنفسه ليأخذ الصواني؟ هذه المرة سأقذفه بها ليكتوي بنارها، أنا أكتوي بنيران عدة، كل يوم !!

(بحر يافا شهد هياجا غير مألوف في ذلك المساء، ونشاطا غير عادي لسفن ترسو بعيدا، واشباحاً تغادرها تحت جنح الظلام إلى قوارب كثيرة أحاطت بها من كل جانب.

في مكتب مدير الميناء كان الميجور جيفري يتابع ما يجري، مستعينا بناظور عسكري خاص يتيح الرؤية الليلية).

هروب إلى بيروت

عدت قبل موعدي، هربت من مأزقي إلى مأزقي. كانت ساعاتي الأخيرة في يافا هربا متواصلا: أهرب من عالم نشأت فيه إلى آخر بنيته بنفسي لنفسي، من انتمائي الاجتماعي القسري إلى إنسانيتي القلقة الملتبسة، من عالم الوصايا إلى عالم المشاعر، من كل ما يذكرني بها إلى كل شيء يستحضر عينيها المتمردتين، ونبرة صوتها المتهكمة. في يافا لم يكن هناك جدوى لمحاولات الهرب، فإن انقطعت عن زيارة الاصطبل حتى لا أصادفها وجدتني أتعثر بوالدها في البيارة، أو شقيقها في شارع البحر، أو ذكراها في أحاديث الوالدة العابرة. إن اعتكفت في غرفتي وأغلقت علي الباب أطلت من كوة في السقف أو حتى من بين صفحات الكتاب.

هربت إلى بيروت، وفي بيروت تفاقم عذابي، فلم أعد أحتمل أن لا أتنفس الهواء نفسه، لم اعد أطيق نفي احتمالات المصادفة أو حتى اللقاء المرتب مسبقا.

لا مشاغلي الدراسية، ولا اجتماعاتي الحزبية، ولا سهرات الأصدقاء نجحت في حجب حضورها. لم أتحدث لأحد من أصدقائي عن معاناتي، ليس خوفا من سخريتهم بل لأنني أريد أن أحتفظ بهذا السر لنفسي، لا أريد أحدا أن يشاركني به، بها !

بالأمس التقيت فادية، صديقتي اللبنانية التي بدأت تقترب مني بشكل ملحوظ في الشهور الأخيرة، دعتني إلى السينما فاعتذرت، ثم دعتني إلى كأس في المنزل الذي تقيم فيه مع اثنتين من زميلاتها، فتذرعت بأوهى الأسباب، وهربت، دون أن أكترث لنظرات الاستغراب في عينيها.

في اليوم التالي أقدمت على عمل جنوني بعد ليلة لم يغمض لي فيها جفن. أردت أن أقتل بهية في وجداني، وبأبشع الطرق. ذهبت إلى ساحة البرج، نعم، أردت ان أستحضر الحيوان في داخلي، هو لا بد أقدر على هزيمة طيفها. دخلت أحد البيوت والارتباك باد علي كل حركة من حركاتي.

- تفضل.

قالت لي امرأة أصابني النظر إلى وجهها بالغثيان، لم أر هذه الكمية من المساحيق على وجه امرأة في حياتي.

تلفت حولي بارتباك.

أطلقت المرأة ضحكة ماجنة.

- ما تخاف، أمان.

أخذت نفسا من نارجيلتها وسألتني:

- بدك عربية ولا أوروبية ؟

- عربية.

- لبنينية ولا مصرية؟

- مش مهم.

نادت بصوت مبحوح:

- يا زهرة!

فأطلت فتاة فاجأني صغر سنها، لم تكن تتجاوز العشرين، وكانت في وجهها مسحة جمال طفولي لم تستطع المساحيق أن تحجبها تماما.

- خذي ضيفك.

ابتسمت لي ومدت يدها فلم أحرك ساكنا.

- تفضل.

تقدمتني إلى غرفتها، كنت أقدم خطوة وأؤخر آخرى.

- مالك ؟ أول مرة ؟

هززت رأسي.

أطلقت ضحكة أجفلت من رنتها القوية.

- تاخد كاس؟ بيقلل ارتباكك، وبعدين إلو مفعول كويس على هذاك الإشي.

وغمزت بعينها.

أحسست بالاحتقار لنفسي.

- لا بلاش شكرا.

اقتربت مني وحاولت فك أزرار بنطالي، فانكمشت على نفسي.

- يي! شو قصتك ؟

وقفت فجأة، مددت يدي إلى جيبي وأخرجت كل الأوارق المالية التي وجدتها، وضعتها في يدها وأطلقت ساقي

للريح.

حين وصلت شقتي انفجرت بالبكاء.

سارة

فوجىء أبو سليم بزيارتها.

- أهلا سارة.

- أهلا فيك عمو أبو سليم.

- كيف الوالد؟

- والله ما بشوفه كتير، بس بخير، مشغول كتير.

- شو اللي شاغله زيادة هالأيام؟

خفضت سارة عينيها وكأنها تتجنب نظرات أبو سليم، ثم رفعتهما فجأة:

- عمو، بابا مشغول بأشيا ما رح تعجبك، وأنا جاية خصوصي عشان أقول لك.

نظر إليها أبو سليم مستغربا:

- خير ؟

- بابا بينقل مهاجرين من أوروبا لفلسطين.

نظر إليها غير مصدق: شو بتقولي ؟ انتي متأكدة؟

- متأكدة عمو. نفس السفن اللي بتنقل البرتقان على بريطانيا، في طريق الرجعة بتحمل لاجئين يهود في قبرص واليونان.

قطب أبو سليم، صمت للحظات، ثم تساءل :

- ليش بعمل هيك؟

- ما بعرف عمو. ما كنت عارفة انو مع البلماخ

أجفل أبو سليم من وقع الصدمة: الحكي هذا أكيد ياسارة؟ أبوكي مع البلماخ؟

- اكيد عمو. إنت بتعرف خطيبي أسعد إلو اتصالات مع الحزب الشيوعي، وهم أكدوا له وأنا حزينة كتير. هاي البلاد لأهلها، إلنا كلنا، ومش ناقصنا ييجو ناس من

أوروبا يعملو إلنا يهود وعرب.

نظر أبو سليم إلى سارة وابتسم. لأول مرة اكتشف فيها ملامح أليفة، كأن في وجهها شبها من إحدى بناته: عيناها العسليتان وشعرها الخروبي وابتسامتها الساحرة، ألا تذكره بهالة أو مها ؟

- أصيلة يا سارة.

ابتسمت بدورها وهمت بالوقوف.

- وين مستعجلة؟ خليكي تغدي، اليوم عاملين مسخن

- ياي!

صرخت بفرح طفولي.

- مسخن ؟ بموت فيه.

ثم بصوت حزين: بس مرتبطة، لازم أمشي.

- طيب خدي غداك معك. يا رضا، خليهم يحضرو رغيفين

مسخن لسارة توخذهم معها، وجيبهم هون.

- لا بلاش يجيبهم، أنا بنزل أسلم على عمتو أم سليم والبنات، وباخدهم.

- طيب بدك اياهم بدون بصل؟

تساءل مبتسما.

ضحكت وقالت: لا طبعا، بس الكبة بحبها بدون بصل.

وقفت وودعت أبو سليم، ثم نزلت الدرج متجهة إلى الدار القديمة

أما أبو سليم فقد استدعى فزاع وأرسله في مهمة للقاء أبو الفوز

زيارة

جست أم زهدي النبض حين التقت أم إبراهيم في عرس طارق لم تدر بم تجيبها، وقالت لها إنها ستشاور أبو إبراهيم ابو إبراهيم لم يمانع من حيث المبدأ، ولكنه لم يفاتح بهية في الأمر، ولم يرسل جوابا لشقيقه أبو زهدي رغم مرور أشهر على الموضوع.

صباح هذا اليوم وصل أبو زهدي وأم زهدي إلى يافا في سيارة فلاح الصغير لقضاء بعض الأشغال المهمة، وبعد أن انتهيا منها فاجآ عائلة أبو إبراهيم بزيارة.

كان الوقت ظهرا حين وقفت سيارة الفورد الحمراء أمام المنزل في طرف البيارة.

خرجت هنية لاستطلاع الأمر، ثم هرعت إلى الداخل تبشر الوالدة: عمي أبو زهدي ومرة عمي.

خفت أم إبراهيم لاستقبالهما.

- أهلا وسهلا، أهلا وسهلا.

صافحت سلفها وقبلت وجنة سلفتها، ودعتهما مع سائق السيارة إلى الدخول، فاعتذر السائق بأن لديه أشغالا.

أخرج تنكة زيت من صندوق السيارة وأدخلها إلى البيت.

- بترجعلنا المسا.

قال أبو زهدي.

- وااال، بدكمش تنامو عنا ؟

سألت أم إبراهيم مستنكرة.

- تسلمي يا مرة أخوي، بس لازم نرجع اليوم، مصالحنا، بنقدرش نغيب عنها.

- والله أبو ابراهيم رح يزعل.

- لا يزعل ولا عباله.

قالت أم زهدي: ما هو عارف البير وغطاه.

تقدمت أم إبراهيم ضيفيها إلى الصالة.

- تفضلوا.

جلس الجميع على حشية على الأرض.

- كيف اللي وراكم؟

سألت أم ابراهيم.

- بخير، بيسلمو عالجميع.

- وين عروستنا؟

تساءلت أم زهدي.

- في المدرسة.

ردت أم إبراهيم.

- هي بدهاش تخلص من هالمدرسة ؟ ليش ما طلعتوهاش زي أختها؟

لم يعجب السؤال أم إبراهيم.

- البنت شاطرة، وأبوها مبسوط عليها، بدو اياها توخذ المترك.

- المترك؟

تساءلت أم زهدي باستغراب.

- ولليش ؟ ما هي آخرتها بدها تتجوز وتقعد في البيت.

- شو بدك في هالحكي يا مرة ؟

قال أبو زهدي مستنكرا، ثم تابع:

- بنتهم حرين فيها.

دخلت هنية حاملة صينية عليها تنكة قهوة وثلاثة فناجين.

تناولتها منها والدتها: هاتي أنا بصب القهوة، روحي انتي نادي أبوكي.

خرجت هنية، وبعد أقل من نصف ساعة عادت ومعها

والدها.

- أهلا وسهلا.

وقف أبو زهدي وعانق شقيقه، وصافحت أم زهدي سلفها.

- شو هالمفاجأة الحلوة ؟

- يحلي أيامك ياخوي.

- كيف البلد والعيال ؟

- الحمد لله بخير، الكل بسلم عليكم.

وقفت أم إبراهيم وتوجهت إلى المطبخ، فتحت بابه وخرجت إلى حيث قن الدجاج وبيت الأرانب في الحاكورة اختارت فرختين وزوجا من الأرانب بمساعدة هنية، ونادت أبو إبراهيم الذي استأذن من ضيفيه، وخرج حاملا سكينا حادا. ذبح الفرختين ثم الأرنبين، وناول زوجته السكين ثم عاد إلى ضيوفه.

- سخني مية يما، خليني أمعط الجاج، وقشري بطاطا وبصل.

بعد أن انتهت من معط الدجاجتين وتنظيفهما سلخت جلد الأرنبين وغسلتهما، ثم قطعت كل واحد منهما إلى أربع قطع، وكذلك فعلت بالدجاجتين. بعد ذلك توجهت إلى التنور و لقمته بعض الحطب واشعلت النار.

حين انتهت هنية من تقشير البصل والبطاطا قطعت البندورة وأعدت الصينية، وتوجهت بها إلى حيث وضعت والدتها قطع الدجاج والأرانب، ملحتها وبهرتها وأضافتها مع الماء وزيت الزيتون للصينية، وناولتها لوالدتها التي أدخلتها إلى الفرن.

حين عاد إبراهيم وبهية من المدرسة كان الضيوف والغداء بانتظارهما: صينية دجاج وأرانب بالبطاطا والبصل.

آه يا بحر

يا بحر لم أعد أحتمل أكثر، اريد أن اركب أمواجك وأتلاشى معها، أو أتحول إلى حورية ماء، أسكن أعماقك... لا تخذلني يا بحر !! لا بد أن تخفيني بأي طريقة، لن أنتظر سكاكينهم حتى تجز عنقي ! هذا ما كان ينقصني، أن يزوجوني زهدي ابن عمي !! أن يحبسوني في بيت بلا شرفة، في بلد بلا بحر ! أن يبعدوني عنك ! لن أتزوج زهدي ابن عمي مع أني أعرف أن ذلك الأمير لن يخطفني على حصانه الأسود، أنا مجرد خادمة لذلك الحصان، أنظفه وأعده لنزهات الأمير، لكني لا أمتطي ظهره. دونه تاريخ من الذل الذي تحترفه عائلتنا للحصول على لقمة عيشها. كيف لي أن أقبل الأمير ووالدي معتاد على تقبيل يده؟ كيف لي أن اصبح أميرة القصر وأهلي

هم عبيده؟ كفى أوهاما وعودي إلى رشدك أيتها الغبية، أو عودي إلى أحلام لا تضر، عن فتاك الذي يجوب البحار أو أمير يبني قصره من أغصان السرو البري، يغفو على همسات النجوم وتوقظه أنفاس الفجر. ذاك أمير من بيئتك، لا تهدد أحلامك عنه قوانين المجتمع ولا تعبث بمسلماته... كوني رفيقة بأهلك ولا تشطي بعيدا ! آه يا بحر آه ! لماذا صادقتني؟ لماذا راودتني عن بؤس حياتي؟ لماذا أغرتني زرقتك بارتياد المدى وعالمي ضيق حدوده آخر شجرة في حديقتنا الصغيرة؟ لقد عبثت بي أيها البحر، ثم تركتني لقدري !! لو لم أعشق لانهائيتك !! لو لم اقع في هوى أمواجك المتوحشة!!! لو تصالحت مع حياتي !! آه يا بحر كم أنت قاس !!!

هروب إلى يافا

فوجئ الجميع بوصوله. لم يحدث أن قضى إجازة عيد الفصح في يافا، فهي أقل من أسبوع. أحست الوالدة بالقلق، خاصة بعد أن خيل لها أن وجهه شاحب.

- مالك يا حبيبي؟ شو جرى لك؟

- ولا اشي يما، شو بدكمش آجي إجازة؟

تساءل بدلال وابتسامة على شفتيه.

- كيف بدناش؟ يا ريت تيجي كل يوم، بس ما إلك في العادة تيجي في إجازة الربيع.

- رح أصير آجي بكل إجازاتي، عشان تنبسطي.

- الله يبسطك يا حبيبي.

صعد إلى الدار الجديدة وسلم على والده وشقيقه اللذين أبديا استغرابا بدورهما لحضوره المفاجئ، لكنهما لم

يفصحا عنه.

حين اختلى إلى نفسه في غرفته هجمت صورتها على خياله. كيف سيراها؟ سيلفت الانتباه لو اصطنع ذريعة أخرى لزيارة بيت عائلتها. وإذا التقاها صدفة في الاصطبل، ماذا سيقول لها؟ لديه الكثير ليقوله ولكنه لا يستطيع النطق به... الكلمات تكاد تتفجر من أعماقه، لكنها تصدم بجدران سميكة وعازلة؛ فتتكسر وتتبعثر شظاياها في قلبه فتدميه.

جاءت شقيقته هالة تدعوه للغداء، فحاول أن يتكلف ابتسامة وهو يقول لها إنه ليس جائعا.

بعد قليل هرعت والدته إلى غرفته، وتكرر مشهد سابق.

- شو مش جعان؟ شو صاير لك؟ وزنك خاسس ووجهك أصفر ! شو فيه يا حبيبي؟ أنا أمك تخبيش علي.

- والله ما فيه اشي يما بس مش جوعان.

تكرر الوضع في اليوم التالي، عندها تحدثت والدته إلى شقيقه سليم، طلبت منه أن يحضر له طبيبا. طمأنها سليم بأن شقيقه ليس مريضا، وأنه يعرف علته وسيداويها بنفسه. عينا سليم تحيطان بكل ما يجري في محيطه، وإن غفل عن شيء فهناك فزاع، الذي يتقاضى راتبا محترما لكي يبقي عينيه مفتوحتين، ولا يسهو عن أي شاردة أو واردة.

لم يخف عليه حال شقيقه، وإن كان أثار استغرابه. غريب أمر هذا الفتى!!! لماذا يعقد الأمور بهذا الشكل؟ هي أبسط مما يتصور !! أبسط بكثير !! سأعد له مفاجأة وأفك محنته ! إحفظ هاللطش أيها الفتى العاق !!!

الحلم الذي وصم مصيري

أحرى بك أن تضرب رأسك بالجدار حتى تدميه، أو تفيق من هذا الكابوس العذب...التاريخ لك بالمرصاد، أطلق حكمه وانتهى الأمر، وما أنت إلا عنصر غير فاعل في مساره. لو لم ير مؤسس الإمبراطورية العثمانية في منامه ذلك الحلم المدمر عن تلك الشجرة العجيبة، لتغيرت مصائر شعوب وأفراد، وربما مصيري أنا أيضا..

(وكان لارطغرل ابن اسمه عثمان كان يتردد على رجل صالح يتحدث معه. وفي إحدى الزيارات رأى عثمان ابنة الرجل الصالح فأسرته، فطلب نكاحها من أبيها فرفض، فحزن عثمان لذلك حزنا شديدا. وفي يوم من الأيام إذ هو في سبات عميق إذا به يرى حلما عجيبا في منامه. ما إن استيقظ منه حتى ذهب إلى الرجل الصالح فقصه عليه،

فوافق الرجل على زواجه من ابنته. وكان الحلم أنه رأى القمر يصعد من صدر الرجل الصالح وصار بدرا ثم نزل في صدر عثمان. ثم خرجت من صلب عثمان شجرة نمت في الحال حتى غطت الأجواء بظلها عبر جبال القوقاز وطوروس وأطلس، وخرجت من جذعها أنهار دجلة والفرات والنيل. ورأى ورق هذه الشجرة كالسيوف، تحولها الريح نحو مدينة القسطنطينية. فعند سماع الرجل الصالح الحلم تفاءل وزوجه ابنته، وقال له إن اسرة عثمان ستحكم العالم).

تبا لك أيها الشرق البائس: حلم رجل مخرف يحدد مصير شعوبك لمئات السنين ؟! أوروبا دحرت الإقطاع منذ قرون، أما نحن هنا فما زلنا ننعم ببركاته ونذوق لعناته، حسب موقعك من المعادلة. أنا شخصيا منتشر على طرفي

المعادلة، بفضل قلبي الممزق ووعيي الموبوء بعلامات الاستفهام.

بهية ! حكم علينا التاريخ قبل سنوات طويلة، ولا نملك سوى أن نئد أحلامنا المجنونة ! الحلم في هذه المنطقة من العالم كان له مفعول القدر لا سحر التحليق: خلق إمبراطورية تسلطت على مصائر شعوبها، بدل أن يفتح أبوابا ويشرعها على المستقبل. سامحيني على غوايتي اللامسؤولة، ما كان يجب أن أجرك إلى أوهامي. يكفي أن أفتح عيني كل صباح من أيام الإجازة في هذا البيت حتى أرى أن جدرانه أسمك من أن أخرقها بتردد أنفاسي ونبضات قلبي. بقيت أيام ثلاثة من إجازتي وسأعود إلى بيروت لأنعم بحرية ممارسة طقوس حزني. تصوري، في هذا البيت أنا محروم منها، فوالدي وأخي سليم يتوقعان

مني أن أكون رجلا، والحزن في نظرهما سمة ضعف لا تليق بالرجال. ووالدتي وأخواتي يرغبن برؤيتي سعيدا، أنثر الابتسامات هنا وهناك، وأنعم بامتيازات كوني ابن أبو سليم صاحب الأملاك المترامية الأطراف في يافا.

منذ أيام وأنا لا أرغب بالأكل ولا يحضرني النوم. قلب والدتي يتفطر، وغضب والدي وسليم لا حدود له. ما كانا يتخيلان أن أجلب العار للعائلة بدل شهادة الطب من الجامعة الأمريكية، التي ستضيف امتيازا اجتماعيا جديدا إلى امتيازات هذه العائلة الكثيرة.

أنا، ابن أبو سليم بجلالة قدره، تخطف قلبي بنت ناطور بيارتنا؟! وليت الأمر توقف عند هذا الحد، فعرف العائلة، بل عرف الطبقة، لا يحظر العلاقات مع نساء الفلاحين، ولكن قانونا مختلفا يحكم تلك العلاقات، قانون التعسف

والتجبر الذي يمنح أيا من أفراد العائلة الذكور حق انتزاع أي فلاحة تروقه حتى من سرير زوجها، ولا يملك أحد أن يعترض على ذلك.

يكفي إذا لمح الوالد أو سليم مثلا، فتاة أو امرأة راقتهما أن يوعزا لفزاع، وستكون في سرير أحدهما خلال أقل من ساعة: مقهورة، مسلوبة الجسد والإرادة، تلبي رغباتهما الحيوانية، ثم تحمل، مع كل الجراح التي أوقعوها بها، إلى منزل والدها أو زوجها، مع هدية سخية، ثمنا للذة التي منحتها، رغما عنها، للسيد.

لا العائلة ولا الطبقة تستهجن أن تروقك فلاحة، لكن الطريق إلى تلبية الرغبة بسيط ومختصر، فما بالي أعقد الأمور بهذا الشكل ؟ لا سليم ولا الوالد يفهمان أن أكتئب وأغلق علي باب غرفتي، لا أطلب الطعام ولا أدعو

الأصحاب كعادتي للذهاب إلى شطحات في البيارة.

والدتي تخشى على صحتي، ويقلقها هزالي وشحوب وجهي ووجومي. تقول إن عينا أصابتني، آه يا أمي لو تعرفين سحر تلك العين التي أصابتني، وعذوبة تلك الابتسامة ! ولو تعرفين كيف بهرتني تلك الجرأة ! لكن هذا السحر لا علاج له عند أي من المشايخ الذين تفكرين باستشارتهم ! لا التعاويذ تجدي ولا قلب الهدهد الذي طلبه ذلك النصاب سيحرر قلبي.

- وينو التيس؟ وينو ؟ فضحنا الله يفضحه !

سليم متجه إلى غرفتي تسبقه جلبته المعهودة، قلت له أكثر من مرة أن يتركني وشأني، رجوت الوالد أن ينهره، أرجوكم، اتركوني بحالي لهذه الايام الثلاثة المتبقية من إجازتي.

- افتح ولا يا سقيطة. إفتح، بكفينا فضايح. خزيتنا الله يخزيك ! وانتي يا ست الحسن إخرسي! بكفي العمايل اللي عملتيها!

إلى من يتحدث سليم ؟ كنت قد سمعت نهنهة أنثوية قبل قليل، ولكني ظننتها إحدى أخواتي ضربها أو زجرها أخوها الكبير صاحب السلطة المطلقة في العائلة، خاصة على الإناث. لكن يبدو أنه يوجه كلامه لفتاة أو امرأة أخرى.

- افتح ولا ياخرا، هاي هي اللي لوعتك؟ وعلى إيش ؟ لو كنت قلت لي كنت من زمان جبتها لغرفتك.

لا يمكن ! يبدو أن كابوسي وصل مرحلة متقدمة، لا ! لا ! من المفروض أن أهب الآن من فراشي فزعا وينتهي الكابوس... أغمض عيني وأفتحهما، وأغمضهما

وأفتحهما، أستجدي الكابوس أن ينتهي، لكن صوت سليم الذي لم يتوقف عن الصراخ خطفني من أوهامي؛ لأكتشف أن الكابوس ليس إلا واقعياً، والنهنهة تتحول إلى نحيب، ثم إلى صراخ جريح، وأنا اقفز من فراشي كالمجنون، أتعثر بكل ما في طريقي، أفتح الباب، بل أنتزع ضلفته، وأنطلق صارخا وقد بدأت أعي ما يجري: اتركها يا كلللللب !!! يا كلللللب!!!! يا كللللللب!!!!!

أفيق من الكابوس على الكابوس.. هي، بهية، بكبريائها الجريح، هناك، أسيرة جبروت القوانين الجائرة، والعضلات المفتولة للقواد المسمى فزاع، وسليم بابتسامته الصفراء يقف منتصرا على جراحي: إهدأ، شو مالك ؟ بدك إياها؟ جبتها لعندك، خذها، هي إلك طوال الليلة، إعمل فيها اللي بدك إياه، بنت، بكر الله وكيلك ! تمزمز عليها طول الليلة هع

هع هع...

تجنبت النظر إليها وهجمت على فزاع بكل قوتي: اتركها!!!

إتركوها يا كلاااااب !!!

وبدأت أنتحب بهستيريا جعلت كل من في البيت يتجمعون

أمام غرفتي. هرعت أمي باكية وكذلك أخواتي.

- الله ينتقم منكم، الله ينتقم منكم !

جاءت دعوات أمي المكلومة وسط دموعها.

- ايوا ايوا، ابنك الخرع هذا كان ناقصك !

صرخ سليم، لكن الوالدة استمرت في الصراخ: الله يغضب

عليك، رجعوها لأهلها، خافوا من الله !

فزاع لم يقاوم ضرباتي، بل لم يكترث لها، أما سليم فقد

زأر:

- خلص بلا ولدنة ! إذا ما بدك اياها بآخذها أنا، أنا أولى

فيها.

وجلجل صراخ بهية ليغرس في قلبي سكاكين، وانفلت من يد فزاع الذي كان يحاول السيطرة علي، وانطلقت إلى المطبخ، أحضرت أول سكين وقع في يدي وعدت إلى حيث المشهد الكابوسي، لأجد والدي الذي وصل الصراخ إلى مسامعه وقد انضم إلى الجمهرة أمام غرفتي، صرخ في فزاع طالبا منه إعادة بهية إلى أهلها.

حين رآني راكضا والسكين في يدي والجنون يطل من نظراتي أصابه الهلع، وصرخ بصوت مخيف: ولك يا مجنون، شو بدك تعمل ؟ يا غضيب الوالدين هات السكين، هات.

وانتزعها من يدي بعنف ثم وجه صفعة مدوية إلى فزاع، الذي كان ما يزال يمسك بذراع بهية بقسوة.

- وانت يا كلب اسبقني عالصالون.

طأطأ سليم رأسه وغادر الممر متوجها إلى الصالون، أما الوالد فوجه حديثه إلى الوالدة: خذوا البنت عندكم يا أم سليم، طيبوا خاطرها، ونادوا إمها توخذها.

احتضنت والدتي بهية التي ألقت برأسها على كتفها، واختلط نحيبهما بنحيب أختي. أما أنا فدخلت غرفتي، انهرت على السرير وأسلمت نفسي لنشيج لم أفق منه إلا إلى غيبوبة..

نداء الأزرق

بيت الناطور في آخر البيارة مسكون بالفاجعة. الأم تلطم خديها بعد أن مزقت ثوبها، وصراخ هنية يشق سكون الليل. إبراهيم يبكي، أما الوالد فقد غرق في صمت أخاف الجميع. لم ينبس بكلمة واحدة، منذ أن توقفت سيارة أبو سليم أمام بيتهم، ونزلت منها زوجته تمسك بيدها ابنتها ورأساهما مطأطآن في ذل.

بهية تبكي بهستيريا، وكلما استعادت ما حصل لها تطلق صرخة حادة ثم تلطم خدها حتى تدميه.

فجأة هب أبو إبراهيم واقفا وغادر المنزل. نظر إليه الجميع بفزع. إلى أين يذهب ؟ أي فعل مجنون سيقدم عليه ؟

- يابا وين رايح يابا؟

صرخ إبراهيم وسط نهنهاته. لم يجب، تبعه تاركا أمه

وشقيقتيه يكملن طقوس الفاجعة. ابتعد مع والده عن المنزل، لكن الصرخات المجنونة بقيت تصله بكامل قوتها، وكأنها تأتي من داخله.

في باقا فوجئ أبو زهدي بالزيارة المفاجئة، وفوجئ أكثر بطلب شقيقه الذي لم يكن متعجلا فيما سبق لإتمام الموضوع.

احتضنت هنية شقيقتها لكنها كانت غائبة. سكتت صرخاتها فجأة وشخصت عيناها إلى اللاشيء، أصاب أختها الفزع وصرخت تنادي والدتها:

- يما، يما، تعالي شوفي.

هرعت أمها باكية: اسم الله عليكي يا حبيبتي. اسم الله عليكي.

وبدأت تقرأ آيات قرآنية فوق رأسها.

فجأة لاحظت الوالدة أن الحياة عادت إلى عيني ابنتها.

- الحمد لله.

ظنت ذلك من أثر القرآن، وأن الآيات التي تلتها فوق رأسها أنزلت عليها السكينة، لكن ما تلا خيب ظنها وأفزعها، إذ هبت بهية فجأة وانسلت كالسهم خارجة من البيت. ذعرت الوالدة، وصرخت:

- هنية، الحقي أختك يما، شوفيها وين رايحة.

واستأنفت العويل.

بهية سمعت صوته لأول مرة، دائما كانت تتحدث إليه وجوابه الصمت، تبثه أسرارها ولا يجود عليها بحكاية واحدة من تلك التي شهدها عبر السنين، والآن سمعت نداءه، واضحا لا لبس فيه، يدعوها إليه، أمواجه نطقت أخيرا، هديره تحول إلى وشوشة حانية ثم كأنها تشكلت

كلمات مواسية. تجري بكل قوتها، فهي تنتظر هذا النداء منذ سنين. تصل الشاطئ، تبدأ بخلع ثيابها قطعة قطعة، يفتح البحر أحضانه، ويحتويها، تصغي لصوته، يوشوشها:

أرتيمس تبكي أنوثتها، أرتيمس تفتح قلبها عنوة وترمي القفل بين الموج. أرتيمس ترمم قلبها بما تبقى من حلم، تلملم الشظايا وترفع العمدان. أرتيمس تحاول اصطياد معنى لوجودها، تقطف شرود الذهن من عينيها وتعيد البريق، تفتح قلبها عنوة وترمي القفل بين الموج، ثم تمضي وحدها، تماما، كما جاءت.....

(من قصيدة للشاعرة لمى الناطور).

يقظة

رأيتني أجري بسرعة عجيبة، لكني كنت وحيدا هذه المرة. غريب ! أين ذهبت تلك الفتاة وأفراد عائلتها؟ أحاول الإبطاء من سرعتي، ولكن لا سيطرة لي على خطواتي، كأن قوة خارجية توجهني. فجأة أحسست بظلام يلفني، كأنني فقدت القدرة على الرؤية، وأحسست روائح غريبة حولي، تذكر بأجواء المستشفيات. ثم تدريجيا بدأت أسمع أصواتا تتحدث بلغة لا أفهمها. ولكن أين أنا الآن ؟ لم أعد أجري، أحس بحالة سكون. جسدي لا حراك فيه، عيناي مغمضتان، أتململ، أحاول أن أفتح عيني، أرى صديقي يائيل يحدق بي.

- أين أنا؟

ابتسم يائيل: يا رجل أقلقتني عليك، الحمدلله على

سلامتك، سأدعو الطبيب لأخبره.

غادرني يائيل وبدأت أعي أنني في مستشفى.

ولكن لماذا؟ وكيف جئت إلى هنا؟

عاد يائيل برفقة طبيب وممرضة. تحدث الطبيب إلي

بالإنجليزية:

- كنت في غيبوبة.

صدمت.

- لماذا ؟

- لا نعرف بالضبط، مجرد تخمين. وجدنا في جيوبك علبة

بروزاك، منذ متى تتناوله؟

- منذ سنوات. أنا أعاني من الاكتئاب.

- هل استهلكت مادة مخدرة قبل دخولك في الغيبوبة؟

بدأت أتذكر، ماجد، أبو رزق، المواويل الحزينة، التدخين...

أحسست بالحرج.

ابتسم الطبيب.

- ما حصل معك نادر الوقوع لكنه معروف لنا، حين تدخن الحشيش إلى جانب تناول البروزاك يمكن أن يحدث تفاعل، في حالات نادرة كما أسلفت، يؤدي بك إلى غيبوبة مؤقتة. هذا ما حصل معك.

شرح لي يائيل أنه انتظر عودتي ذلك المساء، ثم أخذته إغفاءة. حين أفاق في الصباح لم يجدني، فهرع مذعورا إلى المقبرة بجوار الهيلتون، وجدني ملقى على الأرض غائبا عن الوعي.

- أصحابك لم يفكروا حتى باستدعاء الإسعاف.

- لا تلمهم يا يائيل، ربما خافوا من الشرطة. أراهن أنهم لن يعودوا للنوم في المقبرة. كنت سببا في تشريدهم.

غادرنا المستشفى وأنا في حالة غريبة· صحيح أنني أفقت من غيبوبتي، لكن حضورا قويا كان يستحوذ على كياني· حضور لعالم آخر، لزمن آخر بقي يجثم على وعيي ولا سبيل للتخفف منه إلا بان أنفث فيه أنفاس الحياة·